MHS - LHL - 01/05

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها

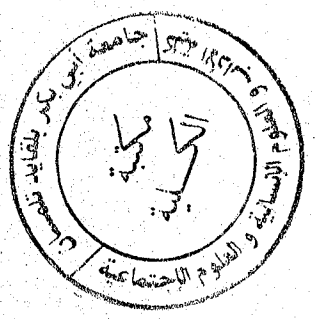

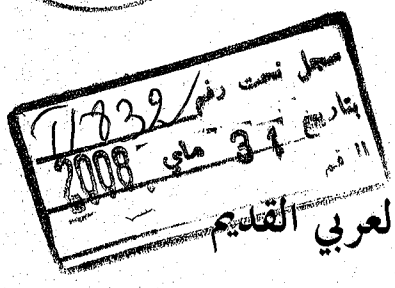

رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي القديم

نظرية الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري

أعضاء اللجنة:

- أ.د محمد عباس ..... رئيسا.
- أ.د محمد طول ..... مشرفا.
- د. عبد اللطيف شريفي ..... عضوا مناقشا.
- د. محمد الزمري ..... عضوا مناقشا.
- د. رمضان كريب ..... عضوا مناقشا.

إعداد الطالب:

- الحاج لونيس بلخياطي.

السنة الجامعية 1426هـ/2005م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى الذي خلقني فأحسن خلقي، إلى كل من دان بعقيدة الواحد المبجل، إلى الشجرة الفاضلة التي أظلت عليّ بظلها الدافئ ولا تزال، إلى والديّ الكريمين

الحاج حميدة والحاجة ربحة

إلى والدتي التي أدبتني فأحسنت تأديبي "الحاجة الياقوت"، إلى زوجتي الكريمة،

إلى أبنائي زكريا عبد الجليل وهاجر الزهرة،

إلى أسرتي الثانية عائلة سبي مرابط، الحاج محمد العزيز والحاجة الزهرة.

إلى أرض وطني الأم وخيار أهلها، وإلى أستاذي المشرف الدكتور محمد طول

وإلى الأستاذ الدكتور محمد عباس، والأستاذ الدكتور رضوان النجار،

وإلى حقل العلم والعلماء والمختصين من أهل الأدب، وإلى كل الطلاب والقراء والأصدقاء،

إلى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة "أبي بكر بلقايد" تلمسان.

أهدي إليكم ثمرة جهد متواضع.

الطالب : الحاج لونيس بلخياطي.

الشكر و التقدير

لقد اهتديت في كلامي السابق هذه الرسالة إلى أستاذي الدكتور محمد طول، فلأنه أول من يستحق الشكر بامتنان واحترام وتقدير نظرا إلى المجهودات العظيمة التي بذلها وهو يؤازرني في البحث مصححا ما وقعت فيه من أخطاء، ومذللا أمامي كل صعوبة اعترضتني في هذه الدراسة بخاصة وأنه جاد عليّ بتصويباته المتكررة إلى درجة الكلل، وأنا أعترف بتعبه وصبره، وأسأل الله أن يجازيه خيرا على كل ما قدمه إليّ من خدمة إزاء إشرافه على هذه الرسالة.

الطالب: الحاج لونيس بلخياطي.

فهرست المحتويات

- **البسملة**
- **الإهداء**
- **الشكر والتقدير**
- **فهرست المحتويات**
- **المقدمة** ..... أ
- **المدخل:** علم الكلام قبل أبي هلال العسكري 02
- **الفصل الأول:** الدرس البلاغي قبل أبي هلال العسكري 10
- **الفصل الثاني:** علم الكلام في بلاغة الشعر والنثر عند أبي هلال العسكري..... 35
- **الفصل الثالث:** علم الكلام عند أبي هلال العسكري في كتاب الصناعتين 53
- **الفصل الرابع:** مصادر نظرية علم الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري 94
- **الخاتمة** 106
- **فهرست المصادر والمراجع** 112
- **فهرست الموضوعات** 117

المقدمة

المقدمة :

كانت البداية بهذا الموضوع بداية اهتمام بعلم البلاغة فهي علم من العلوم الإسلامية استنوها لخدمة دينهم والذود عن قرآنهم لأن ثمرة البلاغة كما رأوها في أول عهدهم بها، هي في فهم المعجزة، معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم وإدراك إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال –منطوقة كانت أم مفهومة – فالأساس الذي بنيت عليه الـــــبلاغة أولا دراسة أساليب القرآن الكريم في التعبير و موازنة الآي من التنزيل من الجيد من كلام العرب لتبيين فضل الكتاب على كلام الفصحاء الذين استوت لديهم ملكة البيان وأعْتُرِفَ لهم بالإجـــــادة و الإتقان ذلك أن القرآن الكريم هو دستور الدرس اللغوي في العربية كما أنه دستور الشريعة الإسلامية.

كان من الطبيعي أن تتطور تلك النظريات إلى دراسات لا تقف عند القرآن الكريم وإدراكه و إعجازه لتحقيق تلك الغاية الدينية، بل تجاوزت تلك الغاية أخرى وهي تحقيق النص الأدبي و إدراك ما حوت من أساليب التسامي بموازنة بين الفنون الكلامية، وعرض ألوان مختلفة من الشعر المشابه في الفكرة أو في الأداء و في النثر المتقارب في الغرض أو الاتجاه والحكم لذلك أو لذلك. إلى ذلك أن الأدب حقل البلاغة، والبلاغة هي الثمرة الناضجة التي تجمل الحقل و تزينه فيتذوقها المتخصصون لحلاوتها وصفاتها المميزة.

إن موضوع علم الكلام –صنعة الكلام في تميزه، جيده من رديئه، وما ينبغي استخدامه– في بلاغة أبي هلال العسكري يجمع بين علمين شغلا الفكر العربي قبل بدايات التدوين فيها، حيث صاحبت البلاغة قبل أن تستقل علما قائما بذاته علوم اللغة العربية الأخرى من نحو وصرف ونقد وهي دراسات وصفية. أما علم الكلام فقد ظهر بعد ازدهار هذه العلوم و تفتح العقول العربية المفكرة وتضلعها في الفلسفة و المنطق و محاولة الفرق الإسلامية (الأشاعرة والمعتزلة)على اختلاف توجهاتها ونزعاتها في الحياة، المزج بين التفكير الديني و الجدل والمناظرة مما أكسب نظرياتهم صلة بالبلاغة العربية.

لذا عقدنا في دراستنا لموضوع علم الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري، باعتباره الفاصل في كتابه الصناعتين بين الدراسة الوصفية والدراسة المتخصصة التي ميزت علم البلاغة عن النحو والصرف والعروض والنقد.

قد دعانا إلى اختيار هذا الموضوع جملة من البواعث نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الشغف بالتنقيب في الأصول التراثية التي كان لها باع في مختلف الدراسات الحديثة التي تعلقت بعلم الكلام مجادلة و مناظرة وكذا محاولة منا الوقوف عند خبايا هذا العلم وعلاقته بالبلاغة عند نقادنا الذين مهدوا للعلمين و نظروا لهما فأخذنا منهم و من آثارهم.

لا أدعي الابتكار في موضوع رسالتي سوى أنني حاولت أن أدرسه في إطار الجمع بين علمين –الكلام والبلاغة عند أبي هلال العسكري على الرغم أن السابقين لعهد العسكري قد أفاضـــــوا وأسهموا في دراسة العلمين مستقلين فأفردوا له مصنفات كثيرة ككتاب معاني القرآن للفراء، ومجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وكذا رسالة في الرد على اليهود والنصارى للجاحظ والكامل في اللغة والأدب للمبرد وقواعد الشعر لثعلب إلى جانب دراسات عنيت بالموضوع قبل أبي هلال العسكري.

أما الحديث عن الصعوبات التي تعترض سبيل الدارس في هذا الميدان من البحث، بداية من محاولة استقراء ذات الباحث للنصوص القديمة قدم أصحابها وقدم لغتهم حتى انفصلت عن بعضها البعض وتجذرها من حيث الموضوعات المطروقة كموضوع بحث، محاولا فك ما استغلق عليّ فهمه، أي فهم بعض ما تعلق بعلم الكلام الذي أوغل فيه العلماء بنظراتهم الفلسفية العميقة التي نلمس آثارها في بلاغة أبي هلال العسكري. بالإضافة إلى عناء ومشقة السفر والتنقل لاقتناء الكتب المتناثرة في ثنايا المكتبات العمومية.

لكن هذا لا يثني في ادخار جهد إضافي اتجاه ما نرجوه لخاتمة أعمالنا، والفضل كل الفضل إلى أستاذي الفاضل المشرف كان النور الذي أضاء سبيلي في هذا البحث لتجاوز كل صعوبة اعترضتني، سندي الصلد الذي قوى من عزيمتي وإرادتي بتشجيعاته وتوجيهاته الصائبة ونظراته الثاقبة، أمدني بكل سلاح التحدي وذلل كل صعوبة اعترضتني في بحثي.

لقد اعتمدت في دراستي للموضوع على المنهج التكاملي (المنهج الوصفي التاريخي+ المنهج الفني البنائي) لما لهذا المنهج من طريقة خاصة في تعامله مع النصوص في الاستقراء والتمسيح التاريخي للفرق الإسلامية الكلامية (الأشاعرة والمعتزلة) ولما لكل فرقة نزعة بحسب توجهاتها النابعة من الذات المنفردة أو الذات الموضوعة وكذا مراعاة الجوانب الفنية البنائية في الجملة العربية، وكذا تنوع الأسلوب لتظهر الدلالة بوضوح وتلك هي وظيفة البيان، ثم كيف تأتي الصورة في جمالها الفني والبنائي وتلك هي وظيفة البديع.

لقد اعتمدت خطة بدأتها بمقدمة أنا بصددها، ثم مدخلا عنونته بـــ"مدخل إلى علم الكلام" علم الكلام قبل أبي هلال العسكري، تعرضت فيه إلى معنى الكلام ومفهومه، ثم عرجت إلى عوامل نشأته وكذا سبب تسميته وصولا إلى التعريفات المضبوطة والدقيقة لهذا العلم ثم تناولته في علاقته بالنص (النص القرآني والنص الأدبي) من حيث عمل الأدباء والفقهاء والمتكلمين وكل ما يدور حوله في عملية توجيه البلاغة العربية في الاعتناء بجوانب وإغفال جوانب أخرى. وقد أرفقت المدخل أربعة فصول، أولها عنونته بـــ"تطور الدرس أو السؤال البلاغي قبل أبي هلال العسكري" تطرقت فيه إلى نشأة البلاغة العربية ومفاهيمها الأولية وصولا إلى ذكر الظواهر البلاغية في العصر الجاهلي، الإسلامي، الأموي، العباسي مراعيا في ذلك أهم البلاغيين وكتبهم قبل القرن الرابع الهجري.

أما الفصل الثاني فعنونته بـــ"علم الكلم في بلاغة الشعر والنثر عند أبي هلال العسكري"، فتحدثت عن كيفية نظم الكلام مع القول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله، وبحث في العلاقة الموجودة بين الألفاظ والمعاني عند أبي هلال العسكري وسابقيه من العلماء العرب وصولا إلى أبي هلال وتعرضه للفظ والمعنى وتعصبه للفظ على حساب المعنى.

أما الفصل الثالث فكان عنوانه "نظرية علم الكلام عند أبي هلال العسكري في كتابه الصناعتين"، فتحدثت عن أثر المتقدمين في ثورة أبي هلال العسكري ثم تعرضت لمنهجه وكذا مقاييسه النقدية في كتاب الصناعتين، ثم عرجت إلى مقاييسه في معاني فنون الشعر وتعرضنا لمقاييسه البلاغية وأثرها في الدرس البلاغي، مع تحديد وظيفة البلاغة لديه مع تصوره العام لمناهج البلاغة في الصناعتين.

أما الفصل الرابع فعنونته بـــ"مصادر نظرية علم الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري"، فتحدثت عن مصادره المختلفة والمتنوعة بداية من القرآن الكريم كمصدر أولي ثم عرجت في ثنايا السنة النبوية الشريفة، فالشيوخ وعلماء عصره وسابقيه.

هذا وأن ختام هذه المقدمة توطئة لإشكال أخذ منا بعضا من التمسيح التاريخي الوصفي الذي تعرضنا إليه في المدخل متسائلين عن علم الكلام قبل أبي هلال العسكري؟

المدخل

علم الكلام قبل أبي هلال العسكري

- معنى الكلام
- مفهوم الكلام
- عوامل نشأة الكلام
- سبب التسمية
- تعريف علم الكلام

معنى الكلام :

في اللغة يطلق على صوت أو جملة من الأصوات الموضوعة للتعبير عن المعنى، والكلمة هي التي تتألف من أصوات منطوقة على هيئة حروف تشير إلى دلالة المعنى... وبعبارة أخرى فالكلام هو اللفظ أو القول الدال على المعنى.

مفهوم علم الكلام :

إن الكلام إذا تجاوز مداه اللغوي والنفسي أصبح صفة من صفات الله تعالى، قال عز وجل: ﴿**يريدون أن يبدلوا كلام الله**﴾([1]). ويقول تعالى:﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله**﴾([2]) ومع انتشار الرسالة المحمدية انتشارا واسعا وتغلغل عقائدها في نفوس المسلمين أصبح القرآن الكريم هو كلام الله مدار تساؤل و جدال بينهم، فصار بذلك موضوعا لعلم قائم بذاته هو علم الكلام.

تتفق أغلب المصادر والمراجع على أن القصد من علم الكلام هو البحث في عقائد الأمة الإسلامية وتبريرها. فموضوع علم الكلام عند أهله هو العقائد الإيمانية من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية

عوامل نشأة علم الكلام :

إذا تأملنا في المفهوم الذي أعطيناه لعلم الكلام لاحظنا أنه يشير ضمنيا إلى نشأته، ولكن نشأة علم الكلام كانت من المسائل التي اختلف فيها المفكرون، ومنهم من ربطها بعوامل نشأة الفلسفة الإسلامية بصفة عامة ومنهم من فصل بينها فصلا حادا وتحدث عن عوامل خاصة بنشأة علم الكلام.

فما هي هذه العوامل ؟ تجرنا هذه الاختلافات في تفسير هذه التسمية إلى التساؤل عن نشأة هذا العلم و هل كانت تسميته كذلك من قبل أصحابه المتكلمين اعتزازا بها و اعتدادا بالانتساب إليه ؟ أم من قبل الخصوم استنكارا له وإدانته لأهله ؟

---

1 – سورة الفتح الآية 15.

2 – سورة التوبة الآية 06.

لم يلقى الكلام في أول أمره قبولا من علماء المسلمين وأئمتهم وفقهائهم ومحدثيهم على وجه الخصوص. فقد روي عن الإمام مالك المتوفى عام 179 هـ أنه قال: إياكم والبدع قيل وما البدع يا أبا عبدا لله ؟ قال: أصحاب البدع هم الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وفي قول آخر: الكلام في الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا -يقصد المدينة المنورة- يكرهونه، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل.

لقد روي عن أبي حنيفة المتوفى عام 150 هـ أنه قال: لعن الله عمرو بن عبيد، فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يغنيهم من الكلام.([1]) وقد أشار طاش زاده المتوفى عام 962 هـ إلى التفرقة من حيث الغاية بين علم الكلام والفلسفة وقبل موضوعه – علم الكلام- الوجود من حيث الوجود ، وإنما يمتاز عن العلم الإلهي الباحث عن أصول الوجود المطلق باعتباره الغاية ، لأن البحث في الكلام على قواعد الشرع، وفي الإلهي على مقتضى العقل([2])، فالمتكلم يستند إلى ما جاء به الدين من المعتقدات ثم يلتمس الحجج العقلية التي تدعمها أما الفيلسوف فيبحث بعقله ويرى حقا ما توصل إليه بالدليل دون نظر إلى ما جاء به الدين ، فالمتكلم يعتقد ثم يستدل أما الفيلسوف فيستدل ثم يعتقد .([3])

سبب التسمية :

وقد ذكرت أقوال كثيرة في سبب التسمية – تسمية هذا العلم بالكلام – يقول الإيجي المتوفى عام 856 هـ : إنما سمي الكلام إما لأنه بإزاء المنطق للفلسفة ، وإما لأن أبوابه عنونت أولا الكلام في كذا ، أو لأن مسألة الكلام أجزائه حتى كثر فيه التشاجر و السفك فغلب عليه، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات مع الخصم...([4]) والعبارة هنا

1 – مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ط 1 ، سنة 1944 ، ص: 155.

2 – طاش كبرى زاده، مفتاح السعادو مصباح السيادة، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط.2، 1955، ص: 23.

3 – د.أحمد محمود صبحي، علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين (المعتزلة)، دائرة المعارف الإسلامية، مصر، ط.2، 1933، ص:25.

4 – الإيجي (عضد الدين عبد الرحمان) ، المواقف ، ج 1 ، مطبعة السعادة ، مصر، ص: 15.

تفيد أن المتكلمين أرادوا مقابلة علم الكلام بالمنطق، على اعتبار أنه يمكن للفيلسوف من الاستدلال، فذلك علم الكلام يورث من يمارسه قدرة الكلام.

لقد خصه المتكلمون بهذا الاسم، ويذكر لفظ "كَلَمَ" معنى جادل أو ناظر، ولكن هل تبنّى المتكلمون الأوائل هذه التسمية وجعلوها علما على علمهم ؟إن المعتزلة وشيخهم واصل بن عطاء المتوفى عام 131 هـ هم أول من فتق الحديث في علم الكلام، ولا تدل أسماء كتبه([1]) أو أقواله أنه استخدم هذا اللفظ كاسم لعلم متمايز.

يبدو أن أصح الأقوال في ذلك أن مسألة كلام الله أو خلق القرآن هي أشهر المسائل التي ثار حولها الخلاف بين المتكلمين حول مسألة هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟ هل كلام الله محدث أم قديم ؟فأطلقت التسمية على العلم كله.

ويضيف ابن خلدون تفسيرا آخر، وسمي علم الكلام لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل...بمعنى إلى مقابلة علم الكلام بالفقه الذي يتعلق بالعبادات والمعاملات وكلها عمل، ومقابلة الكلام بالفقه من قبيل مقابلة الأقوال بالأفعال.([2])

تعريف علم الكلام :

لعل أسبق التعاريف التي وصلتنا عن علم الكلام هو تعريف الفارابي الذي أورده في كتابه"إحصاء العلوم" الذي يقول فيه:"صناعة الكلام ملة يقتدر الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المصورة التي صرح بأي واضع ملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل"([3]) فالمتكلم ينصر الأشياء التي يستعملها الفقيه أصولا من غير أن يستنبط منها أشياء أخرى.

أما علم الكلام حسب تعريف التهانوي: "هو علم يقتدر منه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج و دفع الشبه."([4]) بمعنى أن المتكلم يتخذ العقائد الدينية قضايا مسلما بها ثم يستدل عليها بأدلة العقل حتى وإن أمكن الاهتداء إلى هذه العقائد بالعقل مستدلا عنها أما

---

1 – أسماء كتبه كما وردت لدى ابن المرتضى في المنبه و الأمل : الألف مسألة في الرد على المانوية و ذكرها ابن النديم في الفهرست ، أصناف المرجئة ، كتاب التوبة ، كتاب المنزلة بين المنزلتين كتاب معاني القرآن؟

2 – عبد الرحمان بن خلدون ، المقدمة، مطبعة المكتبة التجارية، القاهرة، 1955، ص: 327.

3 – الفرابي أبو نصر ، احصاء العلوم ، طبعة السعادة، مصر، ص: 71.

4 – التهانوي (الشيخ المولوي محمد أعلى) ، كشاف اصطلاحات الفنون ، بيروت ، ص: 22.

العقائد الدينية أو أصول الدين فأهمها التوحيد والإيمان بالله وتدور هذه المسائل جميعا حول الله، ذات وصفات وأفعال.

فبالنظر إلى هذه التعاريف نظرة مقارنة نجد في أنها في جملتها قد حددت لعلم الكلام وظيفتين:

الأولى: إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية.

الثانية: رد الشبهات التي يوردها المبتدعة على العقائد الدينية بالأدلة العقلية أيضا. والوظيفتان معا تنتهيان إلى غاية واحدة تصبحان بإزائهما وظيفة واحدة، هي الدفاع عن العقائد الدينية التي أتى بها الشرع، وإنما كانت هناك وظيفتان تنتهيان إلى غاية واحدة لأن الدفاع في مثل هذا المجال يتطلب عملين متوازيين.

فالعمل الأول: عمل يتجه إلى تناول أوجه الشبه نفسها بالنقض والتزييف وهو ما عبرت عنه هذه التعاريف "بدفع الشبه".

أما العمل الثاني: هو عمل يتجه إلى بيان صحة المعتقد في ذاته وذلك بقصد تحصينه تجاه ما قد يورد عليه من المطاعن وهذا ما عنته التعاريف بإيراد الحجج وهو ما بينه بوضوح الجرجاني بقوله :"إثبات العقائد الدينية على الغير وإلزامه إياها"([1]).

ومما هو سبيل ما نحن فيه، أن نفرق بين أولئك الثلاثة الذين يرتبط عملهم بالنص ويدور في مجاله، وهم الفقهاء المتكلمون ثم الأدباء، أما الفقهاء فيقتصر عملهم على استنباط القيم التطبيقية على ظاهر السلوك الإنساني سواء كان يعتمد على اللسان أم الجوارح ولا حكم له عليه إلا حيث يدل التوفيق بين النص. ومن هنا ارتبط عملهم باللفظ لأنه الوسيلة الدقيقة فيما يقدرون للتعبير عن هذه النية و أما المتكلمين فأساس عملهم هو النية المصححة للاعتقاد التي تحكم هذا السلوك ومن هنا كان اللفظ عندهم أساس المسؤولية الظاهر بالإضافة إلى تقدير النية في الحكم على سلامة الغاية، وكلا الفريقين يضع في اعتقاده علاقة اللغة بالإرادة الإلهية، فاللغة عندهم ترتبط بأمرين:

الأمر الأول: غيبي يرتفع بغيبيته إلى ما بعد الطبيعة ويتجاوزها بما يستشرف إليه حدود الحسن.

---

1 – الجرجاني (السيد شريف ت 816 هـ)، شرح المواقف ، طبعة بولاق ،سنة 1913.

الأمر الثاني: أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– الذي تلقى هذا النص عن ربه وبلغه إليهم. وهنا كان النص القرآني في بعضه حديثا عن السماء وعن الآخرة ثم بعضه الأخر عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ودعوته.

يبدو أن المتكلمين وقفوا جهدهم على الآيات التي تعرض لهذا الغيب و تحاول تقريبه إلى الناس في لغة أقرب إلى حياتهم المادية التي يعيشون فيها ثم إلى تصوراتهم عن هذه الحياة. أما الفقهاء فإن عملهم يكاد يتحدد في الآيات التي تعرض هذه الشرائع و النظم متخذة من ذلك العرض سبيلا إلى تقرير ما تراه مما يلائم حياة المجتمع البشري.

لقد رأينا هؤلاء بتقديرهم لطبيعة الكتاب الديني ووظيفته، لهم تصورهم الخاص وإدراكهم المحدد لطبيعة اللغة في الإبانة عن تلك المعاني. وبين المتكلمين ظهرت مشكلة اللفظ والمعنى على نحو يختلف عما أثير في بيئة الأدباء كما أنها أيضا ثبتت في بيئة الفقهاء على نحو آخر غير الذي اشتهرت في بيئة المتكلمين وإن كان الأساس الذي يرتكز عليه يكاد يكون واحدا إذ أن التأويل الذي يعتمد عليه متفهمو النصوص هو السبيل الذي يدرك ويوصل إلى المقصود منها وهو اتجاه الذي يعتمد على أصلين:

أولهما: النص بما هو ألفاظ تروى.

ثانيهما: الإدراك لمضمونه.

فاللفظ عندهم دليل هذا المضمون ثم أنه لا يتحدد بالمعاني الأولى للألفاظ، وإنما يضيف إليها ما يجدون في الحياة من شؤون لابد أن يقال فيها حكم الله، فالمضمون إذن يتطور مع الحياة ويسير معها. ومن هنا نشأ البحث البلاغي في بيئة المتكلمين وعلى أيديهم. وكان للمعتزلة أكبر الأثر في إنضاجه، ذلك لأنهم يرون التنزيه المطلق لله تعالى و يؤولون الآيات المتشابهة على هدى من طرائق اللغة في التعبير و البيان ، كما عرضوا لقضية الحسن والقبيح (الجمال والقبيح) وهل هما ذاتين في الأشياء ، أم أن الأشياء توصف بهما ؟

لقد عرض المتكلمون في بحثهم لقضية اللفظ والمعنى ووقفوا منها مواقف متعددة وأظهر مثل لذلك موقفهم من مشكلة خلق القرآن وأراء المعتزلة فيها، وقد ترتب على ذلك

تعدد آراءهم في صفة الكلام، ووصف الله تعالى كما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى:﴿وكلّم الله موسى تكليما﴾([1])

لقد أحس الباحثون في كلام الله أن الأسئلة المطروحة لا يمكن أن تجد جوابا كافيا في المعالجة اللغوية مهما بلغت من العمق وهذا ما عبر عنه الجاحظ بوضوح وهو من أوائل من ألفوا في نظم القرآن حيث قال:"ولو كنت أعلم الناس باللغة لم ينفعك في باب الدين حتى تكون عالما بالكلام"([2]) ويسمو إحساس بالجاحظ إلى علم الكلام باعتباره أداة حتى تكون علوم اللغة نفسها مفتقرة إليه كافتقار غيرها من علوم التفسير([3]).

عموما فإن علم الكلام قد أدى مثل الشعر إلى البحث في الخصوصية البلاغية للنص القرآني، فساهم بطريقة أو بأخرى في تطور السؤال البلاغي إذ هو على العموم كما نعلم بحث في ذات الله وصفاته واحتجاج للعقيدة بالنظر العقلي غير أن كلام الله يعتبر أهم الموضوعات التي خاض فيها المتكلمون حتى قيل أن اسمه مشتق من هذا المبحث الدائر حول أسئلة من مثل، هل كلام الله صفة للذات أم للفعل ؟ وبحث في الذات المنفردة والذات الموضوعة !

لن نخوض كثيرا في الجوانب الإعتقادية إلا في حدود، وانعكاسها على الجوانب التطبيقية العملية التي تمخض عنها البحث البلاغي ويتلخص الجانب التطبيقي من الكلام حول القرآن الكريم في جانبين :

الجانب الأول: الدفاع عن النص القرآني ودفع الشبهات عنه (التنزيه).

الجانب الثاني: بيان وجه الإعجاز.

ولكل من الجانبين أثر في توجيه البلاغة العربية و اغناء جوانب منها على جوانب أخرى.

فالبلاغة علم من العلوم – علوم اللغة العربية – استنه المسلمون لخدمة دينهم و الذود عن قرآنهم وفهم معجزة دينهم وهي القرآن الكريم، وإدراك إعجازه في وفاء الدلالة منه في جميع مقتضيات الأحوال، منطوقة كانت أم مفهومة، وهو أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما

---

1 – سورة النساء الآية 164.

2 – الجاحظ ، البيان و التبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ج.1، ص140.

3 – شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف المصرية، مصر، ط.6، 1988، ص: 140 .

يختص الألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها وهو الإعجاز الذي يقصر الأفهام من إدراكه كما يقول العلامة ابن خلدون.([1]) والقرآن الكريم كلام الله ولا سبيل لإدراك إعجازه والوقوف على سر بلاغته، إلا باستعراض المأثور عن فحول المنظوم من الكلام المنثور .

إن الأساس الذي بنيت عليه البلاغة أولا هي دراسة أساليب القرآن الكريم في التعبير ومقابلتها بأساليب البلغاء ثم استخلاص عناصر الجودة ثم الموازنة لتبيان فضل الكتاب على كلام الفصحاء الذين استوت لديهم ملكة البيان.

كان من الطبيعي أن تتطور هذه النظريات إلى دراسات من الوقوف عند النص القرآني وإدراك إعجازه لتحقيق الغاية الدينية، إلى غاية أخرى هي تحقيق النص الأدبي، وإدراك ما حوى من أسباب العلو والرفعة والتسامي، بموازنة بين الفنون الكلامية وعرض ألوان مختلفة من الشعر و النثر.

لقد استتبع هذا دراسة للألفاظ من حيث هي ألفاظ ومن حيث دلالتها على المعاني واشتمالها على الفكرة والحكمة أو إصابة الغرض الذي يرمي إليه الفن الكلامي.

لقد بدأت البلاغة ببحوث قليلة وأجوبة مختصرة ما لبثت أن أصبحت علما ذا كيان وتراثا مجيدا من التراث العربي تعهده أعلام الأدب والمعرفة وحسبك أن تعد في طليعتهم الجاحظ، قدامة بن جعفر، ابن المعتز، وصولا إلى أبي هلال العسكري موضوع بحثنا محاولين في ذلك رصد حركية الفعل البلاغي في صيرورته التاريخية وعبر محطاته المختلفة وعبر مدارسه المتنوعة مع تطور الدرس أو السؤال البلاغي قبل أبي هلال العسكري.

1 - ابن خلدون ، المقدمة ، ص: 552.

الفصل الأول

الدرس البلاغي قبل أبي هلال العسكري

- منشأ البلاغة العربية
- مفاهيم أولية للدرس البلاغي
- الظواهر البلاغية
- أهم البلاغيين ومؤلفاتهم البلاغية قبل القرن الرابع عشر الهجري

منشأ البلاغة العربية :

هي علم من العلوم الأدبية الجمالية ظهر قديما عند الهنود (لدراسة كتابهم الفيدا) ثم اليونانيين خاصة عند أرسطو، واستن المسلمون هذا العلم لخدمة دينهم والدفاع المستميت عن قرآنهم و إدراك إعجازه – منطوقا و مفهوما – لأنه أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يخص انتفاء الألفاظ وجودة رصفها و تركيبها كيف لا وهو كلام رب العزة...([1]) فالقرآن كلام الله لا يمكن أن ندري إعجازه و الغور في أسرار بلاغته إلا باستعراض الكلام منظوما ومنثورا، واستيعاب أساليب السابقين في التعبير، ومقارنتها و موازنتها بأساليب القرآن.

إذن فالأساس الأول لقيام البلاغة العربية هو دراسة أساليب القرآن تعبيرا ، وموازنتها ومقابلتها بأساليب البلغاء ثم استخلاص عناصر الجودة في القرآن و مواضع التقصير في المأثور.

ترتبط البلاغة بفن القول وضروبه([2]) المختلفة من شعر ونثر، وهما القسمان اللذان تندرج تحتهما الكثير من الفنون. ربما أن لكل قوم بلاغتهم، فالعرب أيضا عرفوا بيانهم، ودقة أدائهم، وبراعة تصويرهم ، وقوة حجتهم منذ العصر الجاهلي، حيث صورهم القرآن الكريم ، لقوله تعالى :﴿**الرحمان خلق الإنسان علمه البيان** ﴾([3]) ولقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا**﴾[4] و قوله أيضا : ﴿**ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون**﴾([5])

لقد ساهمت عوامل متعددة في نشأة البلاغة العربية و تطورها على عوامل أولية بداية من دخول الثقافة العالمية من خلال التراث اليوناني والفارسي والهندي عن طريق الترجمة والإطلاع المباشر، وغير ذلك من سبل الاتصال.

فيمكن القول بأن القراءة العربية في عملية الاحتكاك لكتاب (فن الشعر لأرسطو) هي التي أسعفت الجاحظ في أخذه أفكار مختلفة وعامة ومسعفة في قراءة الخطاب وتصنيفه، وهذا

---

1 – ابن خلدون، المقدمة، ص: 552.

2 – شوقي ضيف ، البلاغة تطور و تاريخ ، ص: 90.

3 – سورة الرحمان الآية 4.

4 – سورة البقرة الآية 204.

5 – سورة الزخرف الآية 58.

من خلال ما وجده في كتاب (فن الخطابة لأرسطو)، إضافة إلى كون الدين أحد الأسباب إثارة للسؤال البلاغي حين انتقل عمل المتكلمين من التنزيه إلى البحث عن المزية و الاحتجاج للنبوة بالإعجاز انفتح السؤال البلاغي: كيف يتفوق النص القرآني عن النص الشعري ؟

مفاهيم أولية للدرس أو السؤال البلاغي :

المشهور في كتب البلاغة العربية أن البلاغة:

لغـــة: تنبئ عن الوصول والانتهاء، يقال بلغ فلان مراده، إذا وصل إليه وبلغ الركـــب ركب المدينة – إذا انتهى إليها، وبلغ الشيء منتهاه.

اصطلاحـــا: تكون وصفا للكلام و المتكلم، فبلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال و الحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يميز كلامه بميزة هي مقتضى الحال، فإن المخاطب للمعنى حال يقتضي أن تؤكد له الجملة فتقول: إن محمدا ناجح ، وذلك للتأكيد هو مقتضى الحال وبلاغة المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ في أي معنى قصد و البلاغة تستلزم أمرين:

الأول : الاحتراز من الخطأ في تأدية المعنى المقصود خوفا من أن يؤدي بلفظ غير مطابق لمقتضى الحال فلا يكون بليغا.

الثانـــي: تميز الكلام الفصيح من غيره حتى تضمن سلامة العبارة من الخطأ و التعقيد فمست الحاجـــة إلى علمين لتحقيق سلامة اللفظ من ناحية ، ولملاءمته لمقتضى الحال من جهة أخرى، الأول يدخـــل في دائرة الأفراد (علم البيان)* والثـــاني يدخل في دائرة التركيب، وقد يسميان بعلم البلاغة. ولما كان علم البديع يعرف وجوه تحسين الكلام، جعله تابعا لهذين العلمين فصارت مباحث البلاغة منحصرة في هذه العلوم الثلاثة (البيان، البديع، المعاني).([1])

لنستعرض أراء بعض المفكرين المسلمين العرب عن البلاغة.

---

* – علم البيان في اصطلاح المتقدمين من أئمة البلاغة يطلق على فنونها الثلاثة من باب تسمية الكل باسم البعض ، وخصه المتأخرون بالعلم الباحث في إعجاز الاستعارة (التشبيه و الكناية) و الغرض من صوغ الكلام بطريقة تبين ما في نفس المتكلم و تفصل الأثر الذي يريده به إلى نفس السامع

1 – مصطفى الصاوي الجويني، الفكر البلاغي الحديث، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 1999، ص: 38.

فقد سئل العتابي – وهو أحد الشعراء العباسيين و كانت له حظوة عند الرشيد و البرامكة – ما البلاغة ؟ فقال : "كل ما أفهمك حاجة في غير إعادة ولا حبسة و لا استعانة فهو بليغ ... فقيل له: قد عرفنا الإعادة و الحبسة. فما الاستعانة؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال مقاطعا كلامه يا هناه ويا هيه واسمع مني ، واسمع إلي ، وافهم عني ، أو ألست تفهم ، أو لست تعقل ، فهذا كله وما أشبهه عيٌّ وفساد"([1])، وزيادة في التوضيح يتحدث الجاحظ عن البلاغة فيقول:" قال بعضهم لا يكون الكلام مستحقا لاسم البلاغة حتى يسبق معناه لفظه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"([2])، وقال ابن المقفع: "لا خير في كلام لا يدل على معناك ولا يشير إلى مغزاك"([3])، ويضيف إلى ذلك بشر ابن المعتز المعتزلي حيث يقول : "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار السامعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني..."([4]).

ويجيب المبرد بما يفيد مفهوم البلاغة عنده فيقول : "إن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ، ومعارضة شكلها ، و أن يقرب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول"[(5)] . ومما جاء كذلك في مفهوم الرماني فهي عنده على طبقات ثلاث : طبقة عليا وأخرى دنيا و طبقة وسطى. فأعلى طبقة في الحسن هي بلاغة القرآن الكريم وهي خاصة به، وتعد معجزة للعرب والعجم، وما دون ذلك لبلغاء الناس، والبلاغة عنده هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ...[(6)]

وخلاصة لما استعرضناه لهذه الآراء و أقوالهم في البلاغة ، خلاصتها أنها في الكلام الذي يصيب معناه بوضوح وسلامة ، مع خلوه من التكلف و الفضول و مراعاته

---

1 – الجاحظ ،البيان والتبيين ، ص 115.

2 – المصدر نفسه، ص 116.

3 – المصدر نفسه، ص 139.

4 – الجاحظ، الحيوان، ج2، ص 284.

5 – المبرد ،رسالة في البلاغة ،تحقيق رمضان عبد التواب ،مطبعة جامعة عين شمس القاهرة ،ط 2، ص 69 .

6 – الرماني ،النكت في إعجاز القرآن ،تحقيق د. محمد خلف الله سلام ، دار المعارف ، ط3 سنة 1968 ، ص 75.

لمقتضى الحال ، وقد زاد بعضهم على ذلك شروطا تتصل باللفظ كأن تكون الألفاظ غير متوعرة وحشية ولا ساقطة ، أي يختار اللفظ الكريم للمعنى الشريف.

لا ريب أن اشتقاق لفظ "بلاغة " من لفظ " بلَّغَ " ما يشير إلى الوظيفة الأساسية للبلاغة ذلك أن "بلغ الشيء يعني وصل وانتهى ، وبلغ الكلام يعني أنه وصل إلى المخاطب و انتهى إليه على أتم وجه و أوضح صورة هو البليغ "([1]).

وفي لسان العرب "رجل بليغ " حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه([2])

إذا البلاغة في نظر البلغاء – كما تقدم – ليست أمرا مستقلا عن اللغة، بل هي الأمر الذي يساعد اللغة على أداء وظيفتها التي هي التعبير أو الإبلاغ، وهي شاملة للغة (اللفظ والمعنى). وما هي وظيفة اللغة إذا لم يستطع صاحبها أن يبلغ بها كنه ما في نفسه ؟ ومن الحق ألا نقبل من المتكلم مجرد إفهامنا، وإلا كان هو وكل من يُفهمنا من الأطفال سواء، لذلك يقول الجاحظ: "إننا قد نفهم بحمحمة الفرس، وصغاء السنور كثيرا من حاجاته وإرادته..."([3])، لذلك لم يكن شرط الإفهام وحده كافيا لتحقق البلاغة، بل لابد من أن تكون إفهاما يعتمد على وضوح المعنى و بيانه وملاءمته لمقتضى الحال وبالطريقة التي تعارف عليها فصحاء العرب في مجرى كلامهم.

لعل هذا الاتصال الشديد بين معنى البلاغة اللغوي والاصطلاحي هو الذي جعل القدماء يستعملون البلاغة و الفصاحة بمعنى واحد. فلقد كانت الكلمتان عندهم مترادفتان حتى القرن الرابع الهجري تقريبا و في صحاح الجوهري أن البلاغة هي الفصاحة([4]) وكذلك هي عند الكثيرين ممن تحدثوا عن الفصاحة وشروطها وهم يريدون البلاغة، ذلك أن معنى الكلمتين اللغوي واحد تقريبا فالإبلاغ عما في النفس هو الإفصاح، وأفصح عما في نفسه أعرب عما فيها وأبان، وأفصح اللبن إذا تجلت رغوته فظهر. وهكذا ترجع الكلمتان إلى معنى واحد من قبيل اتفاق المعاني على اختلاف الأصول والمباني.

---

[1] – د.عبد المنعم الخطابي البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجيل، بيروت، لبنان،ط.1، 1992، ص 19 .

[2] – ابن منظور، لسان العرب، معجم لغوي علمي، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، دار لسان العرب، ج.5، ص 225.

[3] – الجاحظ ،البيان والتبيين ، ص 61 .

[4] – الجوهري، الصحاح، مكتبة السعادة، مصر، دط، دت، ص 20.

قد لاحظ علماء البلاغة هذه الصلة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي للبلاغة، كما لاحظوا الصلة بين البلاغة والفصاحة، يجيبنا عن ذلك قول أبو هلال العسكري في الصناعتين: "البلاغة من قولهم: بلغت الغاية، إذا انتهيت إليها، وبلّغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"([1]). ويضيف مشيرا إلى الصلة بين الفصاحة و البلاغة فيقول: "فالبلاغة والفصاحة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى و الإظهار له"[(2)].

إذ نشير إلى أن البلغاء الذين أخذت البلاغة من كلامهم، وعرفت في أساليبهم، قبل أن تعرف في حدود المؤلفين و تعريفات المصنفين، كانوا ينظرون إلى البلاغة على أنها الوسيلة إلى الإعراب عما يجول في النفس بصورة تمنع من سوء التعبير وسوء الفهم وتصل بالمعنى إلى القلب مما يعني أنهم جعلوها في منزلة مساوية لمنزلة اللغة.

تلك هي لمحات سريعة، ونظرات خاطفة توقفنا على ما بذل السابقون والمعاصرون لأبي هلال العسكري أو أكثرهم من جهد في البلاغة، فكان أبي هلال العسكري قد ثقف كل تلك العقبات البلاغية، وكل ما يتصل بها فكان كتاب الصناعتين ثمرة من ثمراتها، وأعظم دليل على الحافظة الواعية، والبصيرة النافذة. ويعد من الأفذاذ الذين منحوا قدرة بارعة على الإطلاع وجبرا عل الدرس والتحصيل فقرأ وانتفع بقراءته على نحو لم ينتفع بها كثير غيره... .

قبل أن نخوض في آثار أبي هلال العسكري –موضوع بحثنا– و بخاصة في كتابه الصناعتين لما حواه من أثر جميل في صناعة الشعر والنثر، واتصال علم الكلام بهما لما ستذكره لاحقا بنوع من التفصيل. وقبل ذلك لنطرق منن باب الفضول العلمي إلى نواحيه الاستقرائية للنصوص و الشواهد التي أرست لعلم البلاغة (علوم البلاغة) من مراحلها (مسار ومسح تاريخي للبلاغة) عبر محطاتها (عصورها) بداية من الظواهر البلاغية في العصر الجاهلي مرورا بالعصر الإسلامي وصولا إلى بلاغة أبي هلال العسكري في نهاية القرن

---

[1] – أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.2، 1989، ص 7 .

[2] – المصدر نفسه ، ص 75 .

الرابع الهجري. أي من الظواهر إلى عملية التأسيس ثم البناء لفن الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري.

البلاغة في العصر الجاهلي :

ما تحدث به تاريخ أمة من الأمم مثلما تحدث به تاريخ العرب من حب هؤلاء القوم للغتهم وعنايتهم بشأنها واحتفائهم بها.

لقد أحل العرب لغتهم من حياتهم المحل الأول، فالعربي في نظرهم لا يكون كاملا ما لم يبلغ من لسانه الغاية، وكان من يبلغ بلغته نثرا أو نظما منزلة رفيعة من الخطابة أو الشعر تبلغ به لغته منزلة أرفع بين قومه وأبناء عشيرته، مبلغا عظيما بين القبائل والعشائر. ولذلك كانوا إذا نبغ منهم شاعرا أو خطيبا أولموا له واحتفوا به وجعلوه عيدا لهم وفخرا.

في هذا العصر نلمس أن لدى أدباءه من شعراء وخطباء التصور الواضح للبيان الأدبي المؤثر، فنجد الكهان كانوا يلتزمون السجع لا يهمهم سوى التأثير في السامعين بإحداث موسيقى تعزف على مشاعرهم مثل ما أورده الجاحظ في قولهم :"الأرض والسماء والعقاب السقعاء، واقعة ببقعاء لقد نفر المجد والسناء.. "[1]

نجد العرب يمدحون العمل الجليل، ويتفننون بالحسب الكريم ، ويتحدثوا عن مكارم الأخلاق، فأطالوا وصف الحبيبة في وقوفهم بالطلل الدارس، ولقد وصفوا وأجادوا الوصف، ولقد تمادوا في الهجاء ووصف النزاع والقتال بين القبائل، كما ندبت الأخت أخاها والمرأة بعلها.

ولقد كان زهير صاحب الحوليات ينفق حولا كاملا ليقدم قصيدة واحدة في العام كله ليبقى زمنا طويلا يردد فيها نظره ويخيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه فيجعل عقله زماما على رأيه عيارا على شعره ... وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ليصير قائلها فحلا وشاعرا معلقا([2])، ومما جاء

---

[1] – الجاحظ، البيان والتبيين، ص 290.

[2] – د. محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتدادها، إفريقيا الشرق، د.ط، 1999، ص27.

في الأغاني: "أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه كان مقبولا وما ردوه منها كان مردودا"[1]

ذلك لأن قريش اشتهرت بشعرائها المحنكين ، ومن دلائل وجود البلاغة في العصر الجاهلي وجود كل ما نقلته كتب الأدب على النابغة الذبياني الذي كان الشعراء يحكمونه في إنتاجهم ويأخذون بنظرته وأرائه . ومما جاء عنه قوله حين سمع حسان بن ثابت في سوق عكاظ يقول:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقــطرن من نجدة دما

أقللت جفناك وأسيافك (وقلت يلمعن بالضحى) ولو قلت (يبرقن بالدجى) لكان أبلغ في المديح، لأن الطيف في الليل أكثر، وقلت (يقطرن من نجدة دما) فدللت على قلة القتل ولو قلت (يجرين) لكان أكثر لانصباب الدم.([2])

باختصار فان العصر الجاهلي له شعراء كـــــانوا عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور، وكانوا يصلون إلى ملاحظات هي أصلا الملاحظات البيانية والمتصفح لأشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات وتتلون بالمقابلات والطباقات والجناسات وكذلك خطبهم ذات السجع والموسيقى ، وهذا دلالة على أنهم كانوا يعنون عناية فائقة بحسن الكلام وبلاغته فقد ظهرت عندهم البلاغة الفنية في أسمى درجاتها وهي معالجة القول في أي غرض.

أما البلاغة التعليمية التي تدرس أبواب البلاغة وتفضل القول فيها ، وتعرف كل باب وتبين أقسامه وحدوده فلم تعرف لديهم ، ولم يعرفوا التشبيه ولا الاستعارة ولا الكناية بالمعنى العلمي الذي نعرفه اليوم، ولكنهم عرفوا ألوان البلاغة معالجة.([3])

---

[1] – أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق وإشراف لجنة من الأنباء ،الدار التونسية للنشر تونس طبعة دار الثقافة، بيروت، 1983 ،ج7،ص 220.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور والتاريخ ، ص33.

[3] – عائشة حسين فريد ،منهج البحث البلاغي،. – دار قباء الطباعة والتوزيع القاهرة ،ط1، 1977 ، ص70 .

البلاغة في العصر الإسلامي :

بظهور الإسلام اتسمت دائرة البلاغة وتنوعت المقاييس الفنية إذ أن القرآن نفسه حجة بلاغية تركت أثرا في نفوس العرب آنذاك بسمو بيانه. وقد حوى القرآن كثيرا من مظاهر البلاغة كالسجع والجناس والطباق والمقابلة والتشبيه، والاستعارة والحذف والإجاز والإطناب وغيرها من وجوه البلاغة التي تركت أثارها في أساليب العرب.

إذ لما نزل القرآن قويت ملكة البلاغة، لأن العربي كان يسمع القرآن الكريم ويقرأ آيات التحدي فينتظر فيه ثم ينظر في كلام البشر فتتبين له مواقع الإعجاز في كلام الله، ومواطن التقصير في كلام البشر، وهكذا كان يدخل العربي الإسلام عن طريق البيان ولقد كان للقرآن الكريم أثرا بعيد المدى في رقي البلاغة الفنية، فهو أبلغ كتاب في أغراض اللغة العربية ومعانيها وألفاظها وأساليبها، ولم تظفر البلاغة بشيء من التدوين في ذلك العصر نظرا لأنها مركوزة في طبائعهم، فعندهم ملكة القواعد التي يقوم عليها إنشاء الكلام الفني التي كانوا يعتمدون عليها في تميز الكلام الجيد من الرديء.

فالبلاغة في ذاتها واجب على المسلم أن يتعلمها، فهي أولى العلوم بالتعلم، إذ بها يعرف إعجاز القرآن الكريم معجزة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ودلالة صدقه فيما بلغ عن رب العزة سبحانه وتعالى[1]. كذلك احتوى الأحاديث على أرقى أساليب البلاغة إذ إن الرسول الكريم اشتهر بالفصاحة فقدره العرب وتأثروا به، فذاعت أحاديثه على كل لسان وخطبه ملأت الصدور والقلوب إذ يقول الجاحظ (ت255) لم ينطق إلا عن ميراث حكمه. ولم يتكلم إلا بكلام قد حق بالعصمة وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمعه له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع الاستغناء عن إعادته، وقلة حاجة السامع على معاودته ...ثم لم يجمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، و لا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم.([2])

---

[1] – د. عائشة حسين فريد، منهج البحث البلاغي، ص71.

[2] – الجاحظ، البيان والتبيين، ص 17.

وقد جاء عن أبي طالب قوله: "ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وسمعتها من الرسول وسمعته يقول: "مات حتف أنفه"، وما سمعتها من عربي قبله"([1]). وهكذا بدأ أصحابه يترسمون خطاه في التفسير، ويحفظون ما نقل عنه، وقد يزيدون بحذر شديد في شرح لفظ غريب أو بيان حكمة أو موعظة . ونشأت طبقة القراء في صدر الإسلام تحفظ القرآن وتلم ببعض التفسير. ونقل عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة و أبّا) فقال هذه الفاكهة قد عرفنا فنما الأبُّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو الكلف يا عمر ومنه أيضا ما قيل من أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– تلى قوله عزّ وجلّ : ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم** ﴾([2]) فقال عمر: ما معنى التخوف ؟ فقام رجل من هذيل يفسر الكلمة لعمر قائلا : التخوف عندنا التنقص، ثم أنشد:

تخوف الرجل منها تامكا* قردا كما تخوف عود النبعة السفن**

فقال عمر – رضي الله عنه – لأصحابه: عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا وما ديواننا ؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

كما أن القوة البلاغية وتأثيرها في النفوس قد أنقذت الكثير من الجـــــلود من النار من ذلك "أن الزبير بن مطعم أورد عن النبي –صلى الله عليه و سلم– في معنى فريد يريد أن يناديه، فدخل و النبي – صلى الله عليه و سلم – يقرأ سورة "و الطور وكتاب مسطور"([3]) في صلاة الفجر فلما انتهى إلى قوله : إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع قال : خشيت أن يدركني العذاب فأسلم ...و في حديث آخر : أن عمر بن الخطاب سمع سورة طه فأسلم"[4].

---

[1] – عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، صحح طبعه وعلق حواشيه الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، بدون طبعة ، بدون تاريخ ، ص 263.

[2] – سورة النحل الآية 47.

* – التامك : السنام

** – القرد : الذي تجعد شعره وقاية للسنام.

[3] – سورة الطور الآية 2.

[4] – شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 33.

من المظاهر البلاغية التي تثبت مدى بلاغة العرب أن الله تبارك و تعالى إذا خاطب الأعراب و العرب أخرج الكلام مخرج الإشارة و الوحي و الحذف([1])، والنبي عليه الصلاة والسلام إذا كتب إلى فارس سهل اللفظ و إذا كتب إلى قوم من العرب فخم و أجزل.([2]) وهذا دليل على مدى فصاحة العربي و حذاقته في فهم المعاني الحقيقية إذ نجد الإيجاز من الصفات المحببة في الكتابة حيث يرى الجاحظ أن (من كثر لفظه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه)([3])... ذلك أن البلاغة قد أذهلت العرب عامة، خاصة ذلك البيان في القرآن حتى قال عنه صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا".([4])

البلاغة في العصر الأموي :

ازداد الاهتمام بالبلاغة في هذا العصر بازدياد النشاط الخطابي حيث كثرت الأحداث واختلطت فتنوعت الخطابة بجميع ألوانها من سياسة وخلقية و ووعظية، واشتهر لكل لون خطباؤه فمن ولاة بني أمية زياد والحجاج، ويقول مالك بن دينار: "ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق ،لبيانه وحسن تخلصه بالحجج".([5])

لقد اشتهروا في خطب السياسة التي أغنت البلاغة لما كان يلتمسه أصحابها من تنويع أساليبهم للتأثير في السامعين تحقيقا للغاية التي ينشدونها مما جعل الخلفاء يحرصون على التعلم و تعليم أبنائهم الفصاحة وعلم البيان. رغم الاهتمام الكبير بالخطابة في هذا العصر التي فاقت اهتمامهم بالشعر وذلك لحاجتهم لمن يعبر عن متطلباتهم آنذاك، فوجدوا في الخطيب ضالتهم ، وارتفع فخر القبائل بخطبائها كقول قيس ابن العاصم المنقري يفخر بقومه:

---

[1] – الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون دار الجيل ، بيروت بدون طبعة ، 1966 ،ج1 ، ص250.

[2] – أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه ، ط2 ،بدون تاريخ ، ص 22

[3] – الجاحظ، البيان و التبيين، ص 188.

[4] – شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 33

[5] – الجاحظ، البيان و التبيين، ج 1، ص 394.

خطباء حين يقوم قائلهم بيض الوجه مصاقع لسن

أما الخطابة الدينية و الوعظية فاشتهرت بأسماء برز منها الحسن بن أبي الحسن البصري، محمد بن واسع الأسدي، يزيد بن أبان الرقاشي، مالك بن دينار السامي.([1]) وكذلك الخطب في المناسبات الاجتماعية كالمواسم والأسواق والنكاح والصلح، ورغم الخاصية التي تميز الخطب وهي الطول إلا أنها تأتي سلسة ممتعة مليئة بالعبارات الجميلة والتراكيب المنسقة، حتى أن قيس بن خارجة بن سنان كانت له خطب، من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، يأمر فيها بالتواصل وينهى عن التقاطع. وأنه خطب يوما إلى الليل فما عاد كلمة ولا معنى.([2]) على حين: قيل لعبد الله بن عمر : لو دعوت الله لنا بدعوات فقال : نعوذ الله من الإسهاب.([3]) كما شاعت بعض الملاحظات والمبادئ الفنية من ذلك دور الصدق في التأثير، حيث قال عمر بن عبد قيس : " الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان". كذلك رفضهم التكرار ودعوتهم إلى تماسك أجزاء القصيدة في الشعر وكذا اشتراطهم الألفاظ والتراكيب الواضحة المألوفة بالابتعاد عن السجع، التذوق الرفيع، والحس المرهف، وصدق التعبير، وفصاحة اللسان.

البلاغة في العصر العباسي :

لقد كان لعامل الترجمة في العصر العباسي أثره الكبير في البلاغة بالإضافة إلى الثقافة العربية، الإسلامية، والترجمة لا نقصد بها كتابي أرسطو (فن الخطابة)و(فن الشعر) لأن ترجمتها كانت متأخرة لأننا نجد الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" قد تناول البلاغة مترجما إياها عند كل من الفرس واليونان والروم والهند ، إذ جاء في قوله: " قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، فقيل لليوناني ما البلاغة ؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام، وقيل للرومي ما البلاغة ؟ قال: حسن الاقتضاب عن البداهة

[1] – شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 235.

[2] – المرجع نفسه ، ص 210.

[3] – الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج 1 ، ص 117.

والفرازة يوم الإطالة...وقيل للهندي؟ قال: وضوح الأدلة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة..."[1]

فالجاحظ رغم احتكاكه ودرايته بالتراث اليوناني إلا أننا نجد أن ابن المقفع قد سبقه ووسع ميادين البلاغة حتى شملت الشعر، والنثر والخطابة والكتابة مفضلا الإيجاز في كل ذلك فنجاح البلاغة عند ابن المقفع هو أن تعطي كل مقام حقه. ونجد بشر بن المعتمر (ت210هـ) بصحيفته البلاغية المشهورة[2] والتي تضمنت عددا من المقاييس والتوجيهات البلاغية أوردها الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)، وما بعدها والتي قدم لها بقوله: "مر بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبله الخطيب، وهو يعلم الفتيات الخطابة، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد، أو ليكون رجلا من النظارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا، وطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان أول ذلك الكلام، خذ من نفسك ساعة نشاطك"[3] ونلخص إلى أحكام بلاغية منها:

1- اختيار الوقت المناسب للكتابة أو الشعر، وتجنب المعاني المعقدة والألفاظ الوعرة، لقوله من أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما .

2- عدم مخاطبة العامة بألفاظ الخاصة.

3- وجوب مطابقة الكلام لمقتضى الحال * فقال بشر: (فلما قرأت على إبراهيم قال لي: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيات، وقد أكد الأدباء العرب أن ما أتى به بشر في رسالته أوضح في علم البلاغة. وصل إلينا قبل الجاحظ أو غيره.)

وقد جاء الجاحظ ليكشف الغموض ويبين السبل ويعطي لكل ذي حق حقه ، فقسم الأدباء إلى ثلاث فئات أسهمت في اغناء البلاغة :

فئة المتكلمين:

حيث أشاد بذكرها ورفع شأنها ، وبين دورها في مواضع كثيرة ، حيث قال : "أن كـــبار المتكلمين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك

---

[1] - الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج 1 ، ص 88.

[2] - الجاحظ ، الحيوان ، ج 2 ، ص 284.

3 - المصدر نفسه، ص 285.

الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع"([1]) فقد كانوا أصحاب منطق وجدل وخطابة، يجمعون إلى جانب ثقافتهم العربية الإسلامية الثقافة المترجمة من الأمم الأخرى.

فئة الكتاب:

كانوا يبذلون جهودا جبارة لتجويد أساليبهم، واختيار أفضل الألفاظ في مخاطبة من يكتبون إليهم على اختلاف مستويات هؤلاء المخاطبين، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في قوله: "أما أنا فلم أر قط طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا."([2])

فئة الرواة :

ذوي الإطلاع الواسع والحفظ الغزير للأشعار والأخبار مما يعطيهم فرصة للتذوق والنقد بصورة راقية، وقد تناولهم الجاحظ في قوله: "ورأيت عامتهم –فقد طالت مشاهدتي لهم – لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور غمرتها و أصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني. ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر"[3]

---

[1] – مقتضى الحال وهو أن يكون الكلم مطابقا للحالة التي يتحدث عنها و مناسبة للموقف الذي يتحدث فيه وقد اهتم العرب بذلك منذ القديم ، فقال الحطيئة :

تحنـــن على هداك المليك. فإن لكـــــــل مقام مقال

وتحدث عنه النحات و البلاغيون وقالوا إن خير الكلام ما كان مطابقا لمقتضى الحال ، وقالوا أن لكل مقام مقال (من معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (عربي ، عربي)للدكتور أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط 2 ، 1997)،ص 642 .

[2] – الجاحظ ، البيان والتبيين، ج.1، ص 23.

[3] – المصدر نفسه، ج.4، ص 24.

كما أن الجاحظ عدّه العرب من مؤسسي البيان العربي، لأنه استطاع أن يجمع في كتابيه (الحيوان) وخاصة (البيان والتبيين) نصوصا كثيرة توضح لنا كيف كان العرب يتصورون البيان في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث، وصورة جميلة عن نشأة البيان العربي منذ العصر الجاهلي الذي جبل على الفطرة السليمة والذوق الرفيع، حيث حاول جاهدا إثبات أفضال العرب على غيرهم من الفرس والروم، وأن البلاغة العربية قبل كل شيء لم تحتك بالأجانب إلا بعد أن استوت قاعدتها، إذ أن تأثر ما جاء بعد أن توسعت الرقعة الإسلامية ودخل أعاجم الدولة خاصة في الخلافة الأموية، ثم جاءت الترجمة التي عمت الكثير من العلوم وفتحت الأبواب العربية للأعاجم.

لقد عاد العرب في القرن الثاني الهجري إلى اهتمامهم بالصناعة في الكلام اهتماما مبـــالغا فيه بسبب الأحزاب السياسية و الصراعات العربية، فتحول الصراع السيـــــاسي إلى الحركة الفكرية بالاهتمام بدراسة اللغة والنحو والحديث والفقه، خاصة لدى الكتاب الذين كانوا يشغلون المناصب العالية في دواوين الأمويين و العباسيين، فابن المقفع ليس عربيا إلا أنه أتقن العربية وأحكم زمامها بالإضافة إلى ثقافته الأجنبية و تمكنه من التراث الأجنبي وخاصة الفلسفة اليونانية ومثله الكثيرين.

هكذا بقيت البلاغة تصارع التطورات وتساير الركب رغم الاختلافات التي طرأت عليها.([1])

أهم البلاغيين و مؤلفاتهم قبل القرن الرابع الهجري :

إن المتطلع على تراثنا الأدبي يصاب حتما بالذهول وذلك لكثرته ، ويكاد يكون كله شعرا، والذي كان صناعة العرب وتنطق به ألسنة فصحائهم ، فتردده الألسنة ويتواتره الناس، واشتهر أمره وحفظ على صفحات القلوب ، لتناوله جميع الفنون و الأغراض التي تتصل بالحياة العربية من بكاء الأطلال ووصف مشاهد الصحراء ، ومديح لأولي النجدة، وهجاء الأعداء، والفخر بالأولياء ، ووصف الحروب والغارات وصولا إلى رثاء الأحبة، أو كل من كانت له صلة رحم أو جوار. فكل هذه الأمور تثير انفعال الشاعر وتأثر فيه فتجعله

[1] – عبد المنعم الخطابي ، البلاغة العربية بين التجديد و التقليد ، ص 18 .

يحاول أن يشرك غيره معه في الإحساس، والتأثر، فتؤثر في حسه، وتثر أفعاله من تعبير عن الحب كعاطفة إنسانية، وبالتالي يكون استقبال السامع أو المتأثر أو المحب لهذا اللون استقبالا مختلفا بحسب الطبائع أو الذوق العام لهذا الفن، فمنهم بحسب أهوائهم وولائهم للشاعر أو عدائهم له. ولذلك كانت الأحكام المأثورة عن السابقين مضطربة يبدو فيها التناقض، لأن ما يعجب هذا لا يرضى عنه ذوق ذلك، وهكذا كانت أحكامهم عامة قائمة على التأثر و الانفعال دون نهج أو مقياس يصدر الحكم على مقتضاه ومن ثم جاء حكمهم جزئيا مسرفا في التعميم ، وهذا ما يفسر ما تجده في الكتب من أحكام مسرفة كقولهم "هذا أجود ما قالت العرب " و "هذا الرجل أشعر العرب"، وبذلك كثرت الموازنة بين شعر و شعر وبين شاعر وشاعر، وتجلت صورة الأحكام على الشعراء و تقسيمهم إلى طوائف وطبقات.

لاشك أن كل واحد من أولئك العلماء الأعلام كان ينظر إلى النص الشعري من الزاوية التي يجيد النظر منها ، يصدق ذلك قول الجاحظ: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إغرابه فعطفت علي أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار و تعلق بالأيام والأنساب"([1]).

لقد كانت هذه العلوم العربية بمثابة نواة للنقد والبلاغة، وكانت قواعدها وأصولها التي وضعها أولئك ، هي مقاييس لقياس الأدب و نقده، ذلك أنه اختلفت ألوانه ومناهجه، وتلك الآراء و الأحكام الأدبية كانت نواة علم جديد من علوم العربية، أو العلوم اللسانية، هو علم البلاغة . دون نسيان أو تغافل جهود أولئك السابقين في دراسة الأدب و نقده، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، ابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات الشعراء)، الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)، وابن قتيبة وكتابه (الشعر والشعراء)، وابن المعتز وكتابه (نقد الشعر)، والآمدي وكتابه (الموازنة بين الطائيين)، والقاضي الجرجاني وكتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه). وهي أهم الكتب التي تتصل بالفنون –فنون الأدب شعره ونثره– وتحللها وتنقدها وتضع لها الأصول والقواعد.

تلك هي لمحات مقتضبة، ونظرات خاطفة توقفنا على ما بذل السابقون والمعاصرون على حد سواء لأبي هلال العسكري من جهد في النقد الأدبي، حتى وإن كان هنالك من

[1] – الجاحظ ، البيان و التبيين ، ص 178.

الاختلاف بين النقد والبلاغة في منهج كل منهما وغايته على أن البلاغة تضع للأديب القوانين التي تساعده على التعبير وتأليف الكلام الواضح الجميل، لكن النقد يفرض أن الكلام قد تم إنشاؤه ثم يتخذ من قوانينه مقاييس يقدر بها هذا الكلام لبيان ما فيه محاسن أو مساوئ، ذلك أنها كذلك تُعْني بالأسلوب أكثر، ثم ترسم له طرق الأداء شعرا أو نثرا خطابة أو قصصا، أما النقد فيعنى بالأسلوب و المادة جميعا.

سنحاول قبل ذلك استقراء واستجلاء لأهم البلاغيين ومؤلفاتهم البلاغية قبل القرن الرابع الهجري (قبل أبي هلال العسكري).

أولا: كتاب مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 207هـ) :

كان سبب تأليف الكتاب مسألة بلاغية تتعلق بالتشبيه، وكون المشبه به معلوم أو غير معلوم واتخذ القرآن الكريم الأساس الأول لدراسته. وتعرض لمسائل بلاغية كان منها الإيجاز، فبين أنه من مذاهب العرب في كلامها قصد التخفيف، ويشترط علم السامع به مثل قوله تعالى: ﴿**واسأل القرية**﴾[1] مجازها أهل القرية[2]

ثم ذكر الإطناب ولكن من غير تسمية ، وكشف أن أسلوب التقديم والتأخير بدون تعليل ، وتحدث عن أسلوب الاستفهام وكشف عن بعض أغراضه البلاغية ، وتعرض للمجاز العقلي أيضا من غير تسمية.

ثانيا: معاني القرآن ، الفراء (ت 207هـ)

سار الفراء على منهج أبي عبيدة إلا أن ثقافته النحوية ظهرت في كتابه بشكل واضح، وشرح بعض الألفاظ و الآيات القرآنية، وبعض الأساليب البيانية والتراكيب الإعرابية، ويرد كل هذا إلى مذاهب العرب في كلامها، واحتوى كتابه على مسائل بلاغية مثل : الإيجاز والإطناب وعرَّف صوره ، وأسلوب التقديم والتأخير، ولكنه لم يبين السر البلاغي كما فعل أبي عبيدة ووضح المجاز العقلي وأسلوب الاستفهام، والإلتفات ولم يسمِّه وتعرض للاستعارة

---

[1] – سورة يوسف الآية 82.

[2] – أبي عبيدة معمر بن المثنى ، مجاز القرآن ، علق عليه وعارضه بأصوله د. محمد فؤاد سركين ، مكتبة الخانجي القاهرة ، بدون طبعة ، بدون تاريخ ، ج 1 ، ص 203 .

ولكنه لم ينص عليها بصراحة وعرض للمشاكلة ولكن بدون تسمية، تلك كانت اشارات الفراء البلاغية.

لقد جاء القرن الثالث الهجري فكثرت الفرق الإسلامية ، وتنوعت اتجاهاتها واشتد الخلاف بينها واتصل خلافهم وجدلهم حول القرآن الكريم ، وأخذ الإلحاد يصوب سهامه نحو الطعن على النظم القرآني والنظم العربي بوجه عام، مما جعل العلماء المسلمين يدافعون عنهما، ونتج عن ذلك آراء في البيان العربي، فأبرزوا لمحاسنه، وكان ممن أسهم في كثرة الإشارات العربية والآراء البيانية، الجاحظ، ابن قتيبة، المبرد، وأبو العباس ثعلب .

ثالثا. الجاحظ (ت 255هـ).

هو أبو عثمان عمرو بن يحيى محبوب الكناني ، المعروف بالجاحظ البصري العالم المشهور صاحب التصانيف في كل فن([1]) وهو يرى أنه لابد من دراسة اللغة العربية وآدابها وفنونها وضروبها وحتى يستطيع الدارس أن يميز بين نظم ونظم وكلام وكلام .([2])

لم يخصص لنا الجاحظ كتابا في البلاغة أو النقد ، ولكن كتابيه (الحيوان) و(البيان والتبيين) هما من الكتب الجامعة التي زخرت بالأمثلة الأدبية مما يربي الناحية الفنية الأدبية في القارئ ، لما فيها من إبداع الأدب ونقده. والجاحظ مؤسس البيان العربي بلا منازع وله هذه التسمية وبها سما كتابه (البيان والتبيين)، ولقد جمع له مادة غزيرة من أقوال الأدباء والشعراء و الخطباء، ووضع له الأسس التي سار عليها البلاغيين والنقاد من بعده. وأورد في الجزء الأول منه عدة تعريفات تكشف عن تصور الأجانب و العرب للبلاغة قبل عصره، وقد أوردها البلاغيين من بعده في كتبهم، وإيراده لتعريفات البلاغة من دون مناقشة يدل على اعتقاده بأن كل تعريف يكشف عن ناحية من هدف البلاغة على الأقل.

لقد ألف الجاحظ كتاب (نظم القرآن) فيرى أن وجه إعجاز القرآن البلاغي هو نظمه البديع و تأليفه العجيب، فهو يخالف جميع الكلام الموزون و المنثور، وهو منثور غير مقفى

---

[1] – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 1 ، 1948 ، ج 3 ، ص 140.

[2] – عبد العزيز عرفة ، تاريخ نشأة علوم البلاغة العربية وأطوارها ، دار الطباعة المحمدية ، ط 1978 ، ص 66.

على مخارج الأشعار والأسجاع وأن نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج ([1]) ولقد ضاع هذا الكتاب ولم يبقى لنا منه إلا بعض الإشارات القليلة المبثوثة في كتابه (البيان والتبيين).

رابعا ، ابن قتيبة (ت276هـ)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، من مؤلفاته: (الرد على من يقول بخلق القرآن) و(مشكل القرآن) و(في تأويل مشكل القرآن) صدره ببيان وجه إعجاز القرآن فقرر أنه معجز بتأليفه البديع ونظمه العجيب، ثم أشار إلى عناصر الجمال في النظم القرآني، فنحدث عن الجمال التوقيعي والنسق الصوتي البديع الناشئ من تقسيم الحركة والسكون فيه تقسيما عادلا، وإذا سمع السامع القرآن طرقت دونه جواهر ألفاظه و أجراس حروفه، فشعر بلذة وتاقت الأذن لسماعه بحب وشغف.([2])

وقد أدرك ابن قتيبة عناصر الجمال في الكلام بوجه عام ، فقال بأنها تأتي من ثلاث جهات :

أولا : الألفاظ.

ثانيا : المعنى الأصلي.

ثالثا : المعاني البلاغية أو الصورة البلاغية التي تحدثها الألفاظ إذا ضمت إلى بعضها على طريقة مخصوصة

فابتدأ ابن قتيبة بدراسة "المجاز" لأن المشاكل أكثر ما تكون فيه ، ولأن غلط أكثر المتأولين من جهته .([3]) وتحدث عن الاستعارة ، ثم الإيجاز بنوعيه ، ثم الإطناب وتعرض لبعض صوره، كما تحدث عن الكناية والتعريض والتورية، وباب مخالفة ظاهر اللفظ معناه، وتحدث عن التشبيه، والتمثيل، وألوان بلاغية أخرى عدها المتأخرون من البديع "كالتوجيه" . ومثل لكل ذلك من أقوال العرب ومن آيات القرآن الكريم.

---

[1] – الجاحظ ، البيان و التبيين ، ص 213.

[2] – ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر الحلبي ، بدون طبعة ، 1954 ، ص 3.

[3] – المصدر نفسه، ص 62.

خامسا: المبرد (ت 285):

هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، من مؤلفاته كتابه (الكامل في اللغة و الأدب)، جمع فيه ضروبا من الأدب من نثر وشعر ومثل سائر وموعظة بالغة ، ولقد نثر فيه من مسائل البلاغة كالإيجاز و الإطناب ، وتحدث عن أسلوب الالتفات وأسلوب الاستفهام وخروجه إلى التقرير و التوبيخ وتحدث عن التغليب وأسلوب التقديم والتأخير و القلب بما يزيد عن السابقين، وذكر أمثلة للمجاز العقلي ولم يسمه ،وعرّف الاستعارة ولكنه لم يزد فيها شيئا ، وتحدث عن التشبيه ، وقال إنه جار في كثير من كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد .[1] وتحدث عن الكناية، وذكر معنى اللف والنشر. وله كتاب آخر هو (البلاغة) يذكر فيه بلاغة الشعراء ويوازن بينهم ، ويجعل قول الرسول صلى الله عليه وسلم فوق كلامهم ، فإذا ما وصل إلى القرآن الكريم جعله فوق هذا وذاك ، ولم يقدم أسبابا موضوعية لهذا التفضيل ، وإنما اعتمد على ذوقه الصافي يقول : " فإذا جاء أمر القرآن نظرت إلى الشيء الذي هو أوحد ، والقول الذي هو منبت ، ألا ترى أن الله جعله الحجة والبيان، والداعي والبرهان وإنما وضع السراج للبصير المستضيء،لا الأعمى والمتعامي"([2])

سادسا: ثعلب (ت 291هـ):

هو أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ، ألف كتاب (قواعد الشعر) تحدث فيه عن الشعر وأركانه و فنونه وأقسامه، ونثر فيه بعض المسائل البلاغية كالتشبيه، وذكر الإفراط و الغلو في المعنى([3]) ولطافة المعنى وهي عنده الدلالة بالتعريض على القريح، ثم يذكر الاستعارة، وتكلم على حسن الخروج ومجاورة الأضداد، والمطابقة والتجنيس واتساق النظم . بالحديث عن ثعلب تنتهي مرحلة الإشارات البلاغية المبثوثة بين تضاعيف الكتب وكانت سمة هذه المرحلة هو التفسير الغامض من الأساليب البيانية، و كانت مجهودات أبي

---

[1] – المبرد (أبو العباس) الكامل في اللغة والأدب، روجع بمعرفة نخبة من العلماء، نشر التجارية، مطبعة الاستقامة، بدون طبعة 1951، ج2، ص 69.

[2] – المبرد ، رسالة في البلاغة ، تحقيق دكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط 2 ، 1985، ص 90.

[3] – أحمد بن يحيى ثعلب، قواعدّ الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم الخفاجي ، طبعة البابي الحلبي القاهرة ، ط1 ، 1948، ص 106.

عبيدة والفراء والجاحظ وابن قتيبة وثعلب والمبرد ومن العوامل التي دفعت ابن المعتز إلى أن يخرج للدارسين و لأبناء العربية كتابه (البديع).

سابعا.ابن المعتز(ت296 هـ).

هو الخليفة العباسي عبد الله ابن المعتز بن المتوكل ، أحد الشعراء العلماء، ومن رجال البديع، ألف كتاب البديع سنة 274 ه[1] والغرض منه :تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا آخر، وبأسلوب يفيض بلاغة وسهولة. بما يدل على ذوق سليم وفطرة عربية مطبوعة. ويعد كتابه أول المتقدمين إلى شيء من أنواع البديع، و أن ما أتوا به و أكثروا فيه بما يسمى بديعا موجود في القرآن الكريم و الحديث النبوي وشعر الجاهليين و الإسلاميين.

وللكتاب أهمية كبيرة في فهم نشأة البديع و تطوره في البيان العربي على مر عصورنا الأدبية، وهو يكتفي بمدلول اللون البديعي بشرح أدبي ومجز حينا وبما تدل عليه الشواهد حينا خطوة علمية موفقة في التأليف (البديع والبيان). إذ تحدث فيه على الاستعارة، والتجنيس والمطابقة، وقد نقل تعريفها عن الخليل رحمه الله . هذا فيما يخص القسم الأول من الكتاب.

أما القسم الثاني من الكتاب ويسميه محاسن الكلام والشعر وقد ذكر ابن المعتز فيه ثلاثة عشرا لونا هي : الإلتفات، الاعتراض، الرجوع، وحسن الخروج من معنى إلى معنى، ويسميه المتأخرون الاستطراد و حسن التنظيم، التعريض، الكناية، و الإفراط في الصفة، وذكر حسن التشبيه، ولم يزد فيه عما سبق، ولم يتعرض لبيان أركانه ولا وجه الشبه، ولكنه نبه على أحسنه.

ثامنا . ابن طباطبا (ت 322هـ).

هو محمد بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم الحسن. ألف (كتاب الشعر) تحدث فيه عن إبداع الشعر ونقده، ويتحدث أيضا عن المعاني والألفاظ، وطريقة العرب في التشبيه، ويصل إلى عيار الشعر، ويجد علة حسنة الاعتدال في الأساليب وموافقة للحال التي يُعد معناها لها

[1] – ابن المعتز كتاب البديع نشر ، كراتشوفسكي ،طبعة مكتبة المثنى ببغداد ، بدون طبعة ، 1967 ، ط بلأوفست ، ص 167.

حتى تسكن النفس وتطرب، والتشبيه أول مقياس بلاغي نجده في كتابه. وختم كتابه بالحديث عن الشعر من حيث اللفظ و المعنى ولا يخلو من إشارات إلى نوع المجاز و التشبيه. [1]

تاسعا . قدامة بن جعفر (ت 337هـ) .

هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة[2] من مؤلفاته (نقد الشعر) ويعد كتابه هذا الثاني بعد كتاب البديع لابن المعتز، يبحث في الشعر والبيان جيده ورديئه. إلا أنه كان ينفي على معاصريه تقصيرهم في العناية بعلم الشعر جيده ورديئه ويتعرض لعشرين لونا من ألوان البديع هي : الترصيع الذي ذكر عند الجاحظ تحت اسم (الازدواج) ثم يذكر التشبيه، وعرض لصحة التقسيم كما يذكر صحة المقابلة و صحة التفسير، ومن نعوت المعاني عنده الالتفات، وذكر المساوات ثم الإشارة، الإرداف، التمثيل، المطابقة، المجانسة، التمكين، التوشيح، الإيغال الاستعارة، فبين القبيح منها والحسن، وعرض للتصريع. وفي الحق أن كتاب (نقد الشعر) يعتبر الأساس الأول في فصل النقد عن البلاغة وجعل البلاغة علما مستقلا.[3]

عاشرا . أبو القاسم حسن بن بشر الآمدي (371هـ)

في القرن الرابع اشتدت الخصومة بين أنصار البحتري و بين أنصار أبي تمام فألف[1]: الآمدي (الموازنة بين الطائيين) ويعدّ قفزة في تاريخ النقد العربي. وقد ذكر فيه أخطاء أبي تمام وعيوبه، وأخطاء البحتري وعيوبه، ومحاسن كلا منهما، ومضى يوازن بين الشاعرين ويعرض بعض المسائل البلاغية كالكناية والاستعارة والجناس والطباق والتشبيه والحذف والمجاز، والاستفهام وخروجه إلى التقرير، وذكر القلب وحسن الإبتداءات وبظهور الآمدي عرف العرب النقد المنهجي بمعناه العلمي الدقيق .

---

[1] – ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق الحاجري وسلام ، المكتبة التجارية ، بدون طبعة ، 1956 ، ص 17.

[2] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، تحقيق د. أحمد فريد الرفاعي ، مطبوعات دار المأمون ، راجعته وزارة المعارف ، بدون طبعة ، بدون تاريخ ، ج17، ص 15.

[3] – عائشة حسين فريد ، منهج النحث البلاغي ، ص 86 .

حادي عشر:أبو الحسن إسحاق ابن إبراهيم ابن وهب (ت 372هـ).

من معاصر ي قدامة ابن جعفر، ألف (نقد النثر) و هو الإسم المشهور لكتاب (البيان) الذي هو جزء من كتاب (البرهان في وجود البيان). عمد فيه إلى تقسيمات البيان، وصرّح ابن وهب كثيرا بالأخذ عن اليونان و نقل عن أرسطو و توسع في شرح أصناف الدلالات. وذكر أنواعا من البديع : التشبيه والكناية والاستعارة والحذف والالتفات ويسميه الصرف والمبالغة والتقديم والتأخير، وتكلم عن الطالب ومنه الاستفهام.[1]

إذ تعتبر هذه الكتب المذكورة آنفا أهم الكتب التي ظهرت في أواخر القرن الثالث وصدر القرن الرابع الهجري و هي ألصقها بالبديع، و قد أثمرت عن حركة اللفظ العلمي المنظم عند العرب، و بلغت درجة سامية بظهور حكومة الآمدي في الشعر وكذلك القاضي الجرجاني.

ثاني عشر: علي ابن عيسى بن علي عبد الله أبو الحسن الرماني (ت 386 هـ)

من مؤلفاته (النكت في إعجاز القرآن)، تحدث فيه عن وجود الإعجاز القرآني، من سبع جهات من بينها البلاغة فهي عنده على طبقات ثلاث: طبقة عليا، و أخرى دنيا، و طبقة وسطى، فأعلاها في الحسن هي : الإعجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس التصريف، التضميم، المبالغة، حسن البيان. وهو بهذا قد تعمق في بيان أسرار الجمال للألوان التي ذكرها.

ثالث عشر:القاضي علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني (ت 392 هـ).

هو من النقاد الذين تناولوا بعض الأساليب البلاغية في كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، وقد نثر في كتابه بعض صور البديع : كالاستعارة والتجنيس والطباق والتقسيم والتشبيه والتمثيل والمبالغة، كما تحدث عن التلخيص والاستهلال والخاتمة.

---

[1] – شوقي ضيف /البلاغة تطور و تاريخ، دار المعارف بمصر ط 3، ص 93، 102.

إذ ترجع القيمة البلاغية لكتابي (الموازنة) و(الوساطة) إلى استعمال المقاييس البلاغية في هاتين الخصومتين. كما اتخذ الأسلوب البياني للقرآن الكريم حكما في مسألة اشتدت الخصومة حولها. كون النظم القرآني هو الفصل في مسائل الجودة و الفصاحة.

ثمّ نجد بعد ذلك أبو هلال العسكري المتوفى عام 395 هـ :- موضوع دراستنا- فإنّ كتابه (الصناعتين) يعد البداية الجادة والواعية لاستقلال علوم البلاغة و تميّزها عن سائر العلوم العربية الأخرى.

أجمل أثر لأبي هلال العسكري (الصناعتين) و قد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام – نثره و نضمه – من غير إخلال و لا إسهاب و الغاية من علوم البلاغة في نص أبو هلال هي أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن. و هي فكرة كثيرة الذيوع عند المتقدمين فعلوم العربية في عرفهم إنّما وضعت لفهم القرآن الكريم، و هم يريدون أن يطمئن المؤمن إلى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل المنطق على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب ومعرفة أسراره في التعبير إذ بها تقع المعرفة بإعجاز القرآن الكريم في قوله : "إنّ أحق العلوم بالتعلم و أولاها بالتحفظ – بعد المعرفة بالله جلا جلاله – علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق الهادي إلى سبيل الرشد ... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة و أخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، و براعة التراكيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ".([1])

وبعد أن بيّن أبو هلال العسكري قيمة المعرفة البلاغية في الوقوف على الأسرار البيانية للقرآن الكريم يتحدث عن السبب الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب فيقول: " فلما رأيت تخليط هؤلاء في راموه من اختيار الكلام، فوقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف و النبل، فوجدت الحاجة إليه ماسة و الكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ ... فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 121.

ما يحتاج إليه في صيغة الكلام نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقودة من غير تقصير أو إخلال.([1])

لنصل إلى أن أبا هلال العسكري بكتاب ــالصناعتين ــ قد وضع اللبنة الأولى في بناء النظرية البلاغية، فقد ضمّ كتابه كثيرا من معارف سابقيه و أصناف و أضاف إليها كثيرا من جهوده كان لها تأثير كبير على من لحقه. كما يعلن الكتاب عن بدأ مرحلة واعية في كم المادة البلاغية المشتتة في الكتب الأخرى، وجعلها في مصنف واحد يقوم على منهجية واضحة في عرض أبواب و فصول المادة، مما أنتج ترتيبا محكما و تنظيما جيدا.

لنصل إلى خاتمة ما تقدم بنا من عرض لأفكار وأراء علماء العرب المسلمين من صنعة الكلام وحسن النظم انطلاقا من مؤلفاتهم من البحوث القليلة والأجوبة المختصرة إلى أن أصبح علما ذا كيان وتراثا مجيدا في عملية التأصيل التاريخي لكتبهم البلاغية وصولا إلى أبي هلال العسكري وكتاب (الصناعتين) وعملية التأسيس من سؤال لدرس بلاغي في نهاية القرن الرابع الهجري.

لنصل إلى طرح الإشكال التالي: كيف تجلت نظرية الكلام –علم الكلام – في بلاغة أبي هلال العسكري أو ما علاقة علم الكلام في نظر أبي هلال بفني –النثر والشعر؟.

---

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 122.

الفصل الثاني

علم الكلام في بلاغة الشعر والنثر عند أبي هلال العسكري

- كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله
- علاقة علم نظرية علم الكلام بفني الشعر والنثر في نظر أبي هلال العسكري
- العلاقة بين الألفاظ والمعاني عند أبي هلال العسكري وسابقيه من العلماء العرب

من هو أبو هلال العسكري؟

أبو هلال هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري نشأ بعسكر مكرم، وهي مدينة من كور الأهواز (فوزستان) بين البصرة وفارس[1]، وأقام فيها حياته، فالظاهر من خلال المصادر أن أبا هلال لم يبرح بلدته أغلب عمره.

عاش حياته مغموراً خامل الذكر، فلم يحظ بما هو أهلٌ له من المجد ونباهة الشأن، كما حظي العلماء والأدباء في عصره الذي عاش فيه، وإن كان علمه الذي تركه في مؤلفاته قد أحظاه بالخلود، فقد قدره الناس بعـــد موته ما لم يكونوا يقدرونه في حياته. ولعل أسباب خمول ذكر أبي هلال في حياته هو أنه قضى أكثر حياته في مسقط رأسه، فالتنقل والترحال يصطحبه طيران الشهرة وذيوع الصيت، فأكثر الذين اشتهروا من العلماء والأدباء هم الذين جابوا الأفاق في سبيل العلم و التحصيل، ووفدوا على الخلفاء والوزراء ووفد إليهم الناس. وسببا آخرا أخمل ذكر أبي هلال العسكري في حياته أنه سليل أسرة ليس لها شأن في السياسة أو الرياسة أو ولاية عمل من أعمـــال الدولة؛ ولعل السبيل الرئيسي في هذا الخمول هو معاصـــرته لأبي أحمد الحسين بن عبد الله العسكري، فقد بلغت مشهرة هذا الأخير الأفاق فقد كان " أبو أحمد العســـكري أحد الأئمة المذكورين في التصرف في أنواع العلوم والتبحر في فنونها، تنقل بين حواضر العراق (البصرة، بغداد وإصفهان) آخذا عن فحول العلماء كأبي القاسم البغوي وأبي بكر بن دريد ونفطويه وغيرهم، أكثر في الكتاب، اشتهر بالدراية والإتقان وانتهى إليه رياضة التحديث والإملاء للآداب والتدريس (بخوزستان)، ورحل إليه العلماء الأجلاء للأخذ عنه والقراءة عليه)[2].

وصفه ابن خلكان "أنه أحد الأئمة في الآداب والحفظ وبأنه صاحب أخبار ونوادر وله رواية متسعة وتصانيف مفيدة "[3]. والأدلة على مبالغة أبو أحمد من بعد صيت أن الصاحب بن عباد كان يتمنى الاجتماع به، فكان الصاحب يكاتبه مرارا، ويستميل قلبه ليشخص إليه.

---

1 – عسكر مكرم :مدينة من كون الأهواز (فوزستان) بين البصرة وفاري.

2 – السيوطي، بغية الوعات في طبقات اللغويين والنحاة ، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص 221.

3 – ابن خلكان، وفيات الأعيان ، طبعة دار المأمون القاهرة، ج.4، ص 156.

ونحن لنا أسبابنا في التعريج على ذكر بعض من سيرة أبي أحمد لشدة صلته بموضوعنا، لأنه علم من الأعلام الذين أخرجتهم (عسكر مكرم)، ولأنه عاش في القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه أبو هلال، فأبا أحمد يكاد يكون الأستاذ الأوحد لأبي هلال وصاحب الأثر الوفير في صقل موهبته الفكرية ولو أنه يوجد اختلاف في المنحى التفكيري بين الرجلين. حتى أن المؤرخين أخلطوا بين بينهما.

ويشير ياقوت إلى هذا الخلط في أماكن عدة من معجمه منها قوله : " وطال تطوافي وكثر تسآلي عن العسكريين أبي أحمد وأبي هلال، فلم ألق من يخبرني عنهما بجلية خبر "[1].

ثم يورد ابن خلكان في ترجمة أبي هـــــلال ما نصه : " وكان لأبي أحمد تلميذ وافق اسمه واسم أبيه واسم أبيه وهو عسكري أيضا، فربما اشتبه ذكره بذكره إذا قيل : الحـــــسن بن عبد الله العسكري الأديب فهو أبو هلال "[2].

نأمل أن نكون قد وضحنا بعض الأمور – باستطرادنا هذا – التي ترفع اللبس عن الخلط بين العسكريين، أبي أحمد وأبي هلال.

لنعود لأبي هلال وحياته، فإذا طالعنا ترجمة حياة أبي هلال، لم نـــــظفر من المعرفة بها إلا بالقليل فكما سبق و ذكرنا فقد أغفلته كتب الأخبار إغفالا، وممن أغفله ابن خلكان الذي لم يعده في وفيات الأعيان، وإن كان يفيض في ذكر أستاذه أبي أحمد. والذين تعرضوا لترجمته لم يخبرونا بتاريخ مولده، ولا حتى بتاريخ تقريبي.

على أنه من الممكن تحديد تاريخا تقريبيا لمولده إذا علمنا أن وفاته كانت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة (395هـ) وهي السنة التي فرغ من تأليف كتابه (الأوائل) .يقول يقوت في ذلك: " وأما وفاته – أبو هلال – فلم يبلغني فيها شيء غير أني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه: وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة "[3]. "كان باستطاعتنا أن نحدد سنة مولده عام عشر وثلاثمائة على وجه

1 – ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، ص 18.

2 – المصدر نفسه، ص 18.

3 – المصدر نفسه، ص 21.

التقريب " [1]. في حين أنه تقلب الرجل في الحياة وتصرفها فيه وتصرفه فيها فلم يصلنا إلا النزر القليل، ولا يوجد بحوزتنا إلا مؤلفاته الكثيرة، المأثور مما نقل إليها من شعره. وهذه المألفات وذاك الشعر يدلان على أن صاحبنا قد أنفد حياته في تحصيل العلم والجلوس إلى المشايخ والتأليف في شتى صنوف المعرفة الأدبية، فقد كان مدفوعا إلى العلم وتحصيله برغبة شديدة ونهم عارم تدل عليه مؤلفاته الكثيرة، باختلاف فروعها، دالة على علم غزير وثقافة موسوعاتية وإطلاع واسع.

بهذه الترجمة الوجيزة جدا لحياة الرجل وتبيان مناقبه كباحث نستطيع الولوج إلى آراء ومناهج أبي هلال البلاغية وذلك لندلل على أن هذا الصرح التراثي كان جديرا بلقب الأستاذية.

علم الكلام في بلاغة النثر والشعر عند أبي هلال العسكري.

كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في التأليف:

يقول ابن رشيق : " إذا أردت أن تصنع كلاما فاحظر معانيه ببالك وتنوق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلبها، وأعمله مادمت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتو تخونك الملال فامسك ... والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الري وتنال إربك من المنفع ... وينبغي أن يجري مع الكلام معارضة فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته، أو معنى بديع تعلقت بذيله، وتحذر أن يسبقك فإنه إن سبقك تعبت في تتبعه، ونصبت في تطلبه... وقد قال الشاعر :

إذا ضـــــيعت أول كل أمر أبــت أعـــــجازه إلا التوائه

وقال بشر بن المعتز : " خذ من نفسك ساعة من نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها لك... فإن قلبك في تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرق حسنا، وأحسن في الإسماع، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عزة من لفظ كريم ومعنى بديع..."[2].

أما أستاذنا أبي هلال فيضع الأسس المتينة لنظم الكلام والقول في الشعر، فينصح أولا بالابتعاد قدر الاستطاعة عن الكد والمطالبة والمجاهدة والتكلف والمعاودة، بل يجب أن يكون الكلام خفيفا على اللسان سهلا محدّرا بشديدة من التوعر، فإن التوعر في رأيه يسلم إلى التعقيد

1 - ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، ص21.

2 - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 151.

والتعقيد يستهلك المعاني، ويشين الألفاظ. ويقول " من أراع معنى كريما، فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف... فكن في ثلاث منازل: فأول الثلاثة: أن يكون لفظك شريفا عذبا، وفخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، فإن فان كانت هذه لا تواتيك ولا تسنح لك عند أول خاطر، وتجد اللفظة لم تقع موقعها... فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها، فإنك إن لم تتعاط قريض الشعر المنظوم ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بذلك أحد، وإن تكلفته لم تكن حاذقا مطبوعا... "[1]. ثم تجده ينصح من ابتُلى بتكلفة القول وتعاطي الصناعة عن تكلفة دون دربة ولا طبيعة ولا سليقة، عليه ألا يعجل ويترك يومه وليلته، لينقض عليه عند نشاطه فإنه لا يعدم الإجابة والمواتاة وهذه هي المنزلة الثانية. أما المنزلة الثالثة : هو التحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك فإنك لم تشتهها وبينكما نسب والشيء لا يحن إلا إلى ما شاكله. وعلى المتكلم أو الناظم على السواء معرفة أقدار المعاني، والموازنة بينها وبين أوزان المستمعين وبين أقدار الحالات فنفضل لكل طبقة طلاقا ولكل حال مقالا، فمن غير اللائق أو حتى من غير الممكن أن تخاطب الراعي عن الطب، أو تخاطب الجائع عن الإسراف. فالمنفعة كل المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال .

علاقة نظرية الكلام يفني الشعر والنثر في نظر أبي هلال .

والرسائل والخطب عنده سواء في كونهما كلام غير مديبج بوزن ولا محلى بتقفية (وقد يتشاكلان أيضا – الكلام لأبي هلال – بين وجهة الألفاظ والفواصل فالألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب ،السهولة والعذوبة. ولا يفصل بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة... في أيسر كلفة ولا يتهيأ مثل ذلك الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسالة إلا بتكلفة... وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعرا إلا بمشقة) [2].

وأبو هلال يرى أن الخطابة والكتابة مختصتان بأمر الدين والسلطان وليس الشعر بهما اختصاص فالكتابة عليها تقوم السلطان (وإن كان هذا محصورا على عصره) والخطابة لها الخط الأوفر من أمر الدين (وإن كان هذا محصورا على عصره فقد أضحت الخطابة اليوم يتعاظم

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 152.

2 – المصدر نفسه، ص 153.

شأنها في المحافل السياسية أكثر من المجال الديني)، والأمور الدينية التي تستعمل فيها الخطابة هي الأعياد والجمعات وتشمل ذكر المواعظ، في حين أن الشعر لا يصلح البتة في أي من هذه المواضع، ولكن له مواضع ومواقع لا ينجح فيها غيره. لكن – والرأي دائما لأبي هلال العسكري : " أكثر الشعر قد بنى على الكذب والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة... من قذف المحصنات وشهادة الزور وقول البهتان، لا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله وليس يراد منه إلا حسن اللفظ وجودة المعنى، هذا هو الذي سوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه ... وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره ... فقال يراد من الشاعر حسن الكلام ،والصدق يراد من الأنبياء)[1].

ورغم هذا العيب في الشعر إلا أن وجود خاصيات وميزات أخرى شفعت له فمن عالي مراتبه التي لا يلحقه فيها شيء من الكلام، هو النظم الذي به زنة الألفاظ وتمام حسنها وليس من أصناف المنظومات يبلغ في قوة اللفظ منزلة الشعر.

ويبدو أن أبى عمر الشيباني – فيما روى الجاحظ – كان لا يحفل إلا باللفظ فمتى كان اللفظ رائقا حسنا، ظل كذلك في أي عبارة وضع فيها، وينعي الجاحظ عليه أنه استحسن بيتين لمعناهما، على حين ليست عليهما مسحة أدبية سوى الوزن وهما:

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سـؤال الرجال

كلاهما مـوت،ولكـن ذا أفظع من ذاك لذل السـؤال)[2].

ثم إن أبا هلال العسكري يرى أن ما يفضل به الشعر على غيره هو طول بقائه على أفواه الرواة وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض والموسيقى الإيقاعيه التي يحملها بين طيات أضربه وأعاريضه وطول مدة الشيء من أشرف فضائله. ومما يفضل به عن غيره من الكلام بعد سيره في الآفاق وشيوعه بين الناس وليس شيء أيسر في الحفظ من الشعر الجيد وهو في ذلك نظير الأمثال – التي هي فن نثري بحث – وقد قيل، " لاشيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب ، وأبقى على الليالي والأيام من مثل سائر والشعر النادر "[3]. ومن تفاظل الشعر أنه

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 154.

2 – الجاحظ، الحيوان، ج.2، ص 121.

3 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 155.

يؤثر في الأنساب والأعراض فكم وضع الشعر من شريف، وكم رفع من دني خامل، وهذه فضيلة غير معروفة في النثر (السرد) من خطب ورسائل أضف إلى ذلك – والرأي دائما لأبي هلال العسكري – " أن ما يفضل به الشعر أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة والمشاهد الجامعة، إذا قام به منشد على رؤوس الأشهاد... ومنه أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس إلا بإنشاد... ومما يفضل به... أن الألحان التي هي أهنا اللذة، إذا سمعتها القرائح الصافية والأنفس اللطيفة... ومن أفضل فضائل الشعر أن ألفاض اللغة إنما يؤخذ جزلها وفصيحها وغريبها من الشعر... أيضا كالشواهد تنزع من الشعر ولولاه لم يكن على ما روي من ألفاض القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه و سلم شاهد "[1]. ثم يعرج شيخنا على الخاصية الإستعمالية للشعر، فمما يتفرد به الشعر عن غيره من الفنون النثرية الأخرى أن الإنسان إذا أراد أن يمدح نفسه فأنشأ في ذلك رسالة أو خطبة جاء في غاية القبح، وإن عمل أبياتا من الشعر كان أظرف وألطف، وكذا صاحب الرياسة والأبهة، لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به و حنينه إليه وبكاه من أجله – كل هذا في خطبة – لاستهجن منه ذلك، ولو قال في ذلك شعرا كان حسنا. وعلى من أراد أن يقرض الشعر ينصحه أبو هلال بأن يحضر المعاني التي يريد نظمها فكرة و يخطرها على قلبه، ثم يبحث لها عن وزن وقافية يسجنه بها ففي رأيه أن من المعاني ما يتمكن من نظمه في قافية ولا تتمكن منه في أخرى... أو تكون في هذه أقرب طريقا وأيسر كلفة منه في تلك، غيري (لمأخذ) الكلام (مقطع علوي، أو روية عمودية) فيقول: " لأن تعلوا لكلام فتأخذه من فوق فيجيء سلسا سهلا ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك فيجيء كذا فجا متجعدا جلفا... فإذا عملت القصيدة فهذبها ونقعها بإلقاء ما غث من أبياتها ورث ورذل... والاقتصار على ما حسن وفخم... فقد أنشدنا أبو أحمد رحمه الله قال أنشدنا أبو بكر بن دريد :

طرقتك عزة من مزار نازح يا حسن زائرة وبعد مـــــــزار

ثم قال أبو بكر لو قال – يا قرب زائرة وبعد مزار – لكان أجود [2].

---

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 156.

2 – المصدر نفسه، ص 157.

ثم يسرد أبو هلال قصة أخرى في نفس المجال وهو اختيار الألفاظ والمعاني لنظم الشعر فيقول : " أخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر عن عبد الرحمن عن عمه عن المنتجع، ابن نبهان قال سمعت الأشهب بن جميل يقول : أنا أول من ألقا الهجا، بين جرير وابن لجا، أنشدت جريرا قوله:

تصنك إلحيها على دلائها تلاطـــــم الأسد على عطائها .

حتى بلغ قوله :

تجر بالأهون من دعـــائها جر العجوز الثني من كسائـــها

فقال جرير الأقال – جر الفتات طرفي ردائها – فرجعت إلى ابن لجا فأخبرته فقال : والله ما أردت إلا ضعفه العجوز ووقع بينهما الشر، وقول جرير – العروس طرفي ردائه – أحسن أظرف وأحلى من قول عمر بن لجا جر العجوز الثني من كسائها... " [1].

وتتوالى قصصه عن تخير شريف اللفظ وناح المعنى لقرض الشعر ويضرب عن ذلك أمثلة متعددة فيرى : أن خير الشعر الحولي المنقح فقد أثبت إن الخطيئة بعمل القصيدة في شهر وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها وكان أبو نواسي يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيلقى أكثرها و يقتصر على الأجود منها ولدا قصد أكثر قصائده... وكان البحتري أيضا يلقى من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذبا... بيد أن أبو تمام كان لا يفعل هذا الفعل وكان يرضى بأول خاطر فأجلب عليه عيب كثير[2].

فيقول أبو هلال في هذا المقام، وينبغ أن تجعل كلامك متشابها أوله بآخره، ومطابقا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، فإن تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام، ومثاله من الكلام المتلائم الأجزاء، غير المتنافر الألفاظ قول أخت عمرو ذي الكلب :

فأقسم يا عمرو لو نبهـــاك إذا نبـــــها منك داء عضال

إذا نبه ليث عريســـــــة* مفيتا مفيـــــــدا نفوسا ومالا

وخرق* تجاوزت مجهوله بوجناء حرف تشـــكي الكلالة

---

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 158.

2 – المصدر نفسه، ص 159.

* – العريسة : مأوى الأسد و الضبع وغيرهم .* الخرق: الأرض البعيدة .

فـــكنت النهـــار به شمسه وكـــنت دجى الليل فيه الهلال

فجعلته الشمس بالنهار والهلال بالليل وقالت : مفيتا مفيدا، ثم فسرت فقالت نفوسا ومالا... ومما فيه من تنافر ألفاظه من أشعار المتقدمين طرفة بن العبد :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترف القوم أرفد.

فالمصرع الثاني غير مشاكل الصورة للمصرع الأول، وإن كان المعنى صحيحا، لأنه أراد : ولست بحلال التلاع مخافة السؤال، ولكني أنزل الأمكنة المرتفعة لينتابوني فأرفدهم، وهذا وجه نظم الكلام.([1])

ويتم أبو هلال قوله : وينبغي أن تتجنب – إذا مدحت أو عاتبت – ألمعاني التي يتطير منها ويستشنع سماعه، وإذا دعت الضرورة إلى سوق خبر أو اقتصاص كلام، فتحتاج إلى أن تتوخى فيه الصدق، وتتحرى الحق، ولك أن تأخذ في طريق تسهل عليك حكايته فيها، وتركب قافية تطيعك في استفائك له .

وينبغي أن يتجنب الكاتب جميع ما يكسب الكلام تعمية، فيرتب ألفاظه ترتيبا صحيحا ويتجنب السقيم منه وهو مثل ما كتب بعضهم : لفلان – وله بي رحمة ، وظلمة – وكان عليه أن يقول : لفلان وأنا راعي حرمته مظلمة، وما يجـــــري هذا المجرى من الترتيب المختار البعيد عن الإشكال [(2)]. وهذه وجهة أبي هلال في نظم الكلام.

إن العلاقة بين الألفاظ والمعاني عند أبي هلال العسكري و من سبقه من العلماء العرب هذه فضية من قضايا علم الجمال الحديث تناولها أرسطو قبل العرب، فالكلمات – عند أرسطو – رموز للمعنى ووسيلة للمحاكاة وهي المادة التي تصاغ فيها الاستعارات وهي – الكلمات – متفاوتة فيما بينها جمالا و قبحا وجمالها وقبحها ينشأ عن جرسها أو معناها. غير أن أرسطو لم يقف طويلا أمام اللفظ والمعنى ليرجح أحدهم على الآخر ويفهم من قراءتنا لآرائه أن اللفظ عنده علامة على المعنى. والنقد العربي القديم لم يكد يخرج عن هذه المعالم الأرسطية في علاجه مسألة اللفظ والمعنى. ثم انقسموا إلى طوائف فمنهم من نظر إلى مقومات العمل الأدبي فأرجعه إلى جانب المعنى مغفلا شأن اللفظ وآخرون أرجعوها إلى اللفظ ومنهم من ساوى بين اللفظ

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين ، ص 159.

2 – المصدر نفسه، ص 159 .

والمعنى ومنهم من نظر إلى الألفاظ من وجهة دلالتها على معانيها في نظم الكلام. ومن أمثلة ذلك قول الآمدي : " إذ يذكر من امتدحوا أبا تمام فقالوا :... إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه، على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة، وأنـــــه إذا لاحا له المعنى أخرجه بأي لفظ استوى من ضعيف أو قوي "[1]. وهذا المثال لأصحاب الرأي الأول. ويقوم في وجهي هذا الرأي آخرون يرون في الصياغة المقاوم الحقيقي للأدب، فلا بد للشاعر أو الكاتب فيما يعالجان من أغراض فنية، قلت لا بد لهما من أن يعطوا الجمل والعبارات حقها في الصياغة الفنية وذلك ليدخل الكلام من باب الأدب. يقول الجاحظ : " والمعاني مطروحة على الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صياغة و ضرب من النسج وجنس من التصوير "[2].

وإذا كان سبيل الكلام الأدبي سبيل التصوير والصياغة فإن قدامة يلتقي مع الجاحظ في نفس الفكرة وهي أن المعاني مادة الشعر، والشعر فيها كالصورة فلا ينبغي الحكم على الشعر في مادته أي معناه، وإنما يحكم عليه بصورة ومقتضي هذا الرأي أن الأدب عبارة جميلة وكفى.
فلو كان المضمون وضيعا واللفظ شريفا، لما نال ذلك بشأن الكاتب بل لعد مقياس براعته وسؤل الأصمعي : " من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله نلفظه كبيرا، أو الكبير فيجعله بلفظه خسيسا " [3].

وبن خلدون تطرف أيما تطرق إذ يرى – نتيجة للاحتفال بالصياغة – " أن العبرة بالألفاظ، وأن المعاني تبعا لها وهي الأصل، –ولعله يقصد أن الألفاظ مقاييس براعة الكاتب دون المعاني وأن الألفاظ هي التي تطلعنا على المعاني فهي الدليل عليها وبدون الألفاظ لا يستطاع استجلاؤها – المعاني – وهو بهذا يردد رأي الجاحظ "[4].

إذن فابن خلدون يرى أن المعاني ميسرة لكل إنسان، والألفاظ كالقوالب للمعاني كالأواني التي يغترف بها الماء، تتفاوت فيما بينها من حيث نوعها ما بين أوان ذهبية أو فضية أو زجاجية

1 – د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط.1، 1988، ص 255.
2 – الجاحظ، الحيوان، ج.2، ص 132.
3 – قدامة بن جعفر، نقد الشعر،تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، د.ط، د.ت، ص101.
4 – محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 257.

خزفية والماء واحد يقول ابن خلدون: "وكذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال، تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني الواحدة في نفسها وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان – إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن – بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيع بفقدان القدرة عليه "[1].

أما ابن سنان الخفاجي فقد قام ببحوث إجرائية عديدة في إ ظهار معايير حسن اللفظ فذكر على سبيل التمثيل تباعد مخارج حروفها، وفي رأيه أن الأصوات تجري في السمع مجرى الألوان من البصر، فمعظم كلام العرب مبني على التأليف من الحروف المتباعدة و يضرب ابن سنان لذلك مثلا فيقول : " ولحروف الحلق مزية من القمح إذا تقاربت ومثال اللفظ القبيح لتقارب مخارج حروفه (الخعخع) "[2]. إذن فاجتماع هذه الأحرف الحلقية في هذه الكلمة جعلها من القبح والبشاعة بما كان، حتى أنه يعسر على المتكلم التفوه بها.

أما قدامة بن جعفر في رأيه أن الحسين في تأليف الكلام يرجع إلى اللفظ أكثر مما يرجع إلى المعنى فقال: "وأحسن البلاغة الترصيع والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ و عكس ما نظم من بناء، وتخليص العبارة بألفاظ مستعارة، إيراد الأقسام، موفورة بالتمام، وتصحيح المقابلة بمعاني متعادلة، وصحة التقسيم باتفاق المنظوم وتخليص الأوصاف بنفي الخلاف، والمبالغة في الوصف بتكرير الوصف، وتكافؤ المعاني في المقابلة والتوازي ... فهذه المعاني مما نحتاج إليها في بلاغة المنطق، ولا يستغني عن معرفتها شاعر ولا خطيب"[3].

بعد عرضنا لبعض أراء أصحاب تفضيل حسن اللفظ وجودة السبك من البلاغيين، وقد أيده في ذلك جل الأدباء و النقاد الذين رأوا في الإعجاب بالحلية اللفظية المجال الأكبر للتجديد وسبب ذلك أن الأقدمين – من المبدعين – استهلكوا المعاني أو أتوا على معظمها، قلت بعد عرضنا لآراء هؤلاء نعرج إلى طائفة أخرى من النقاد العرب الأقدمون الذين كانوا يعتبرون اللفظ والمعنى متساويين. وأقدم ما ورد في ذلك صحيفة بشر بن المعتز المعتزل (متوفى210هـ) وردت لدى الجاحظ، وينصح فيها بشر بترك الوعر المتكلف فيقول: "فإن

---

1 – ابن خلدون، المقدمة، ص 528.

2 – ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، القاهرة، د.ط، 1932، ص 60.

3 – قدامة بن جعفر، الشعر والشعراء، ، ص 3.

التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراد معنا كريما فل يلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما..."[1]. ومن دعاة التسوية بين اللفظ والمعنى ابن قتيبة، فخير الشعر عنده ،حسن اللفظ، جيد المعنى يقول: "فإذا قصر اللفظ عن المعنى، أو حلى اللفظ ولم يكن ورائه طائل كان الكلام معيبا – و يضرب مثلا – كقول القائل:

ولما قضـــينا من منى كل حاجـــة ومســـح بالأركـــان من هو ماسح

وشدت على هدب المهاري رحالن ولم ينظر الغـــادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بينـــــنا وسالت بأعناق المـــطي الأباطـــح

وهذه الألفاظ أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع، فإذا نظرت إلى ما تحتها وجدته: ولما قضينا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعلينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينظر من غدا الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح "[2]. فليس معاني هذه الأبيات شيئا يذكر في نظر ابن قتيبة.

كحوصلة لما ذكرناه فليس هناك فرقا كبيرا بين من نصروا اللفظ على المعنى والداعين إلى المساواة بينهما. فالداعين إلى حسن اللفظ ليس ذلك إلى حسن الألفاظ المفردة أو الوقوف عند حدود الألفاظ لذاتها، متناسين أمر المعنى الذي يدل عليه اللفظ، فمن قال مثل هذا فهو متخلف عن إدراك معنى البلاغة. والحقيقة أن كثير من هؤلاء يشيدون بقيمة المعنى وكانوا يرون بلوغ المرام في اجتماع الألفاظ المتخيرة و المعاني المنتخبة، إذ في الاثنين منبع البلاغة ومتى اجتمع حسن اللفظ وبديع المعنى فقد اكتمل الكلام الحسن من أطرافه. ويعد الجاحظ على رأس من أقصر الحسن على اللفظ دون المعنى وهو يصرح بذلك قائلا: "شأن الكلام شأن التصوير والصياغة مما يدل على أنه لم يرد الألفاظ مفردة عن تراكيبها، ولا التراكيب المتكلفة أو الخالية من المعاني، نعم قد اشترط في التراكيب خلوُها من التنافر وهو وجه حسن لفظي محض ولهذا عاب الشطر الثاني في قول ابن يسير:

لم يضرها والـــــحمد لله شيء وانثنت نحو عزف نفس ذهول

---

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص 134.

2 – ابن قتيبة الدينوري، الشعر و الشعراء، ص 4.

فقال: "فتفقد النصف الأخير من هذا البيت، فإنك سوف تجد بعض ألفاظه يتبرّأ من بعض. وشرط الا يكون اللفظ عاميّا أو ساقطا سوقيا. ولكنه لحظ في كل ذلك ما يتطلبه الموقف من معنى، فرأى أن لابأس من استخدام الغريب الوحشي أذا كان المتكلم بدويا أعرابيا لأنّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس... "[1].

ويرى الجاحظ أيضا أنه لا يمكن وصف الألفاظ بالقبح أو الخسة إذ لابد من مشاكلتها للمعنى وقد يكون اللفظ الخسيس أنسب لمعناه فلا يسد غير مسده : " ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ،فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف و الزجل للزجل، و الإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال"[2] وقد وجد الجاحظ من المواقف ما يحسن فيه اللفظ الوحشي والسوقي فيقول: "وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا و تعايبوا... وسخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع وربما أمتع أكثر من إمتاع الجزل الضخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني"[3].

لنستشف نحن من كلام الجاحظ أنّ القبح والحسن في الألفاظ نسبي، تابع للمواقف والمعاني، إذا فمرد الأمر في استعمال الألفاظ وسبك الأسلوب إلى المعنى أو الموقف والحكم في ذلك مرده إلى الذوق الذي (فبركته) أو (هندسته) التجارب الأدبية و طبعه المران حتى صار ذوقا فنيا يستحق صاحبه أن يكون ناقدا " وملاك الأمر فيه صحة الطبع وإدمان الرياضة، وهو ما تستخبر به النفوس المهذبة وتتشهد عليه الأذهان المثقفة "[4].

لقد انتهت كل هذه الآراء إلى أبى هلال العسكري الذي يرى " وتخير الألفاظ وإبدال بعضها ببعض يوجب التئام الكلام وهـو من أحسن نعوته وأزين صفاته فإن أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب وإن اتفق له أن يكون موقعه في

---

1 – الجاحظ، البيان و التبيين، ج4، ص24.

2 – الجاحظ ، الحيوان، ج2، ص39.

3 – الجاحظ، البيان و التبيين، ج.1، ص 144.

4 – د.محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 266.

الإطناب والإيجاز أليق بموقعه وأحق بالمقام والحال كان جامعا للحسن بارعا في الفضل وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنسيك عن مصادره وأوله يكشف قناع آخر كان قد جمع نهاية الحسن وبلغ أعلى مراتب التمام ومثاله ما أنشدنا أبو أحمد قال: أنشدنا أبو الحسن أحمد ابن جعفر البرمكي قال: أنشدنا عبد الله بن عبد الله بن طاهر لنفسه :

أشارت بأطراف البنان المخضب وضنت بما تحت النقاب المكتب

وعضت على تفاحة في يمينها بذي أشْرٍ عذب المذاق أشْنَبِ

وأومت بها نحوي فقمت مبادرا إليها فقالت هل سمعت بأشعب

فهذا أجود شعر سبكا وأشد التئاما وأكثره طلاوة ...وينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوله بآخره ..."[1]. ويواصل أبو هلال في تبيان ما يصلح من اللفظ للمعاني، فينصح الأديب ألا تتخالف أطراف كلامه ولا تتنافر. ويجب وضع الكلمة مع أختها مقرونة بقرينتها، لان تنافر الألفاظ من عيوب الكلام، والابتعاد كلا لابتعاد عن الحشو الذي لا طائل منه بحيث يستقيم الكلام دونه و يضرب عن ذلك مثالا للكلام المتلائم الأجزاء غير المتنافر الأطراف فيقول: " قول أخت عمرو ذي الكلب :

فأقسم يا عمرو لو نبَّهاك إذا نبها منك داءً عضالا

إذا نبه ليث عرّينه مفنيا مفيدا نفوسا ومالا

وخرق تجاوزت مجهولة بوجناء حرق تشكي الكلالا

فكنت النهار به شمسه وكنت دجى الليل فيه الهلال

فجعلت الشمس بالنهار، والهلال بالليل...وقال...مغنيا مفيدا ثم فسرت فقال: "نفوسا ومالا..."[2].

وفي نفس القضية يواصل أبو هلال سرد قصص عن الصناعة اللفظية والمعنوية فقد روى هذه القصة : " أخبرني أبوأحمد... قال : كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب نختلف إلى مدرك نتعلم منه علم الشعر... فقال لنا يوما : إذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء ،ثم قال أجيزوا – أي أكملوا – هذا البيت :

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 159.

2 – المصدر نفسه، ص 160.

ألا إن الدنيا متاع غـــــــرور

فأجاز كل واحد من الجماعة بشيء فلم يرضه فقلت:

وإن عظمت في أنفس وصـــدور

فقال هذا هو الجيد المختار..." [1].

ويواصل القطف من بساتين المعاني وتخير الألفاظ لها وذلك بقص بعض الحكايات عن أصحاب البيان اللفظي والمعنوي فيروى قصة قال: " حدثنا أبو أحمد الشطني قال حدثنا أبو العباس بن عربي، قال حدثنا حماد عن يزيد بن جلبة قال:دفن مسلمة رجلا من أهله وقال:

تروح ونغدو كل يوم ولـــــــيلة

ثم قال لبعضهم أجز فقال : فحتى متى هذا الرواح والغدو، فقال مسلمة لم تصنع شيئا ،فقال آخر: فيا لك مغدا مرة ورواحا. فقال لم تصنع شيئا، فقال لأخر أجز أنت فقال:

وعما قليل لا تروح ولا نغـــــدو

فقال : الآن تم البيت... "[2]. فالأول جاء بلفظ دون معنى جزل مؤثر فلم يحدث في نفوس المتلقين أثرا ولم يترك في مهجاتهم صدى .وكذا الثاني نسج على منوال صاحبه وذلك لعدم حضور البديهة والحس الأدبي المرهف ،فكانت إجازتهما من المبتذل السوقي السفساف. بيد أن الثالث أثلج صدر مسلمة وصدور الحضور لاختياره ألفاظا تناسبت مع المعنى وكل من الألفاظ والمعاني انصهرت في بوتقة إيقاعية – عروضية – لتعطينا وجبة شعرية دسمة. أما وقد عرض علينا في مجمل الحديث المتقدم صنوف الكلام المتشابه أوله بآخره والمطابق هاديه لعجزه المؤتلفة أطرافه وأطراره يعرج إلى الكلام غير المتشاكل المخلوط المتنافر الأداء فيقول:" فقول طرفة:

ولست بحلال التلال مخـــــــافة ولكن متى يسترفد القوم اســـــترفد

فالمصراع الثاني غير مشاكل الصورة للمصراع الأول، وإن كان المعنى صحيحا... لأنه أراد ولست بحلال التلال مخافة السؤال ولكن أنزل الأمكنة المرتفعة لينتابوني فأرفدهم... وهذا وجه

---

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين ، ص 161.

2 – المصدر نفسه، ص161.

الكلام ولم يعبر عليه تعبيرا صحيحا ولكنه خلطه وحذف منه حذفا كثيرا فصار كالمتنافر..."[1].

ثم تتوالى الأمثلة فيؤاخذ السؤال في قوله:

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كـــــــهام ولا فينا بعد بخيل

فيرى أن ليس لبسا في قوله (ما في نصابنا كهام) من قوله (فنحن كماء المزن) في شيء إذ ليس بين ماء المزنو النصاب والكهوم مقاربة ولو قال – مصححا له – ونحن ليوث الحرب أو أولو الصرامة والنجدة ما في نصابنا كهام لكان الكلام مستويا، أو استعمل (نحن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل أكف لكان جيد). ثم انتقل إلى سرد قصة دلل بها من سبقه من الأدباء وذلك من نفس الجنس السابق من اختلاف المعاني وشرود الألفاظ عن مبتغاها فأتى بهذا المثال في قول

امرئ القيس:

كأني لم أركـــــــب جوادا للذة ولم أتبطن كاعـــــــبا ذات خلخال

و لم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلي كري كرة بعـــــد أجفـــــال

فلو وضع مصرع كل بيت من هذين البيتين – والكلام للأدباء– في موضع آخر لـــكان أحسن وأدخل في استواء النسج فكان يروي:

كأني لم أركب جوادا ولم أقل لخيلي كري كرة بعد أجفـــال

و لم أسبأ الزق الروى ولم أقل ولم أتبطن كاعبا ذات خلخـــال

لأن ركوب الجواد مع ذكر كرور الخيل أجود وذكر الخمر مع ذكر الكواعب أحسن... قال : أبو أحمد الذي جاء به أمرؤ القيس هو الصحيح ذلك أن العرب تضع الشيء مع خلافه فيقولون الشدة مع الرخاء والبؤس والنعيم... [2].

ومن أمثله تنافر الصدور والأعجاز قول حبيب بن أوس :

محمد إن الحاسد بن حشـــــود وإن مصاب المزن حيث تريد .

---

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين ، ص161.

2 – المصدر نفسه، ص 166.

فليس النصف الأول من الثاني في شيء. وعن أمثلة الكلام الموضوع في غير موضوعه قول القطامي:

يمشين زهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل

هن معترضات والحمى رمـــض والريح ساكنة والظـــــل معتدل .

فلو كان هذا في وصف النساء لكان أحسن... ثم يركز على الألفاظ فيقول :" لا ينبغي أن يكون لفظك وحشيا بدويا، وكذلك لا يصلح أن يكون متبدلا سوقيا... أخرنا أبو أحمد عن مبرمان عن أبي جعفر بن القتبي عن أبيه... قال، قال خلف الأحمر قال شيخ من أهل الكوفة... أما عجبت أن الشاعر قال : أنبت قيصوما و جثجثا. – فاحتمل – قلت – أنبت إجاصا وتفاحا – فلم يحتمل. والمختار من الكلام ما كان سهلا جـــــــزلا لا يشوبه شيء من كلام العامة والألفاظ الحشوية وما لم يخالف فيه وجه الاستعمال ألا ترى إلى قول المتنبي :

أين البطاريق و الحلف الذي حلفوا بمفرق الملك والزعم الذي زعموا

هذا قبيح جدا ــ يصفه أبو هلال ــ إنما سمع قول العامة حلف برأسه فأراد أن يقول مثله فلم يستوي له... "[1].

ودائما في كلامه على الألفاظ فعنده تستعمل الألفاظ رباعية وخماسية دون الثلاثية... وينصح أن تستعمل جميعها، ولا يخرج عن أصول الكلمات المستعملة المشهورة فهذا رديء قبيح جدا. وإن كان في الخروج عن أصول الكلمات استقامة للمعنى فهذا أولى ومثاله على ذلك: (ألا ترى أن الناس يستعملون ــ التعاطي. فيكون منهم مقبولا، ولو استعملوا ــ العطو ــ وهو أصل هذه الكلمة وهو ثلاثي والثلاثي أكثر استعمالا لما كان مقبولا ولا حسنا ولا مرضيا فقس على هذا[2]. ثم يفصل كثيرا من الألفاظ فمنها ما إذا وقع نكره قبح موضعه وحسن إذا وقع معرفه ــ ومثاله على ذلك قول الشاعر :

لما التقينا صاح بين بيـــــننا يدني من القرب البعاد لحاقا

فقوله ــ صاح بين بيننا ــ متكلف جدا ،فلو قال ،البين ، كان أقرب،على أن البيت كله رديء ليس من رصف البلغاء .

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص167.

2 – المصدر نفسه، ص167.

وكحوصلة على كل ما سبق في مجال اللفظ والمعنى عند العلماء العرب وأبي هلال العسكري نستطيع الخروج بهذه الخلاصة :

أن النقاد العرب انقسموا إلى طوائف أربعة: طائفة نظرت إلى مقومات العمل الأدبي فأرجعوه إلى جانب المعنى مغفلين شأن اللفظ.

وطائفة ثانية عكس الأولى أرجعوه إلى اللفظ دون المعنى و حجتهم أن كل المعاني استهلكت من السابقين ولم يبقى الجديد إلا في الألفاظ . وطائفة ثالثة ساوت بين الألفاظ والمعاني. وأخيرا طائفة نظرت إلى الألفاظ من جهة دلالتها على معانيها في نظم الكلام، وهذا من أهم الآراء، وهذا طبعا رأي شيخنا أبو هلال العسكري ومن جاء بعده وأهمهم عبد القاهر الجرجاني.

فأبو هلال العسكري لم يقر من رجحوا المعنى على اللفظ، بل كان من أنصار الصياغة ــ كما تقدم وشرحنا ــ من حيث دلالة هذه الصياغة على جلاء الصورة الأدبية. ولم يرض عن رأي من وقفوا عند حدود المعنى في عمومه ليحكموا به على جمال الموضوع أو قبحه مغفلين شأن الصياغة، سواء لديه منهم من فضل الكلام لشرف معناه إذا كان أدبيا أو كان غريبا نادرا، أو من فضله من أجل معناه إذا راق هذا المعنى [1].

نستخلص مما مر بنا في هذا الفصل، في بلاغة الشعر والنثر وكيفية نظم الكلام، وحديث عن فضيلة الشعر –ديوان العرب– عن خاصية التأليف في العلاقة المتعدية للفظ والمعنى في كتب المتقدمين وصولا إلى تعصب العسكري لقضية اللفظ على المعنى.

لنصل إلى طرح الإشكال التالي: كيف تجلت فعليا نظرية علم الكلام بلاغة في كتاب (الصناعتين) ؟

1- د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 268.

الفصل الثالث

علم الكلام عند أبي هلال العسكري في كتاب (الصناعتين)

- أثر المتقدمين في ثورة أبي هلال العسكري البلاغية
- منهج أبي هلال العسكري في (الصناعتين)
- مقاييس العسكري النقدية في (الصناعتين)
- مقاييس العسكري في معاني فنون الشعر
- مقاييس العسكري البلاغية وأثرها في الدرس البلاغي
- علم البلاغة وجهود العسكري فيها

قيمة كتاب (الصناعتين) البلاغية :

كتاب (الصناعتين) للعسكري (ت 395هـ) – هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري – له مؤلفات عديدة زادت على العشرين مؤلفا، مازال معظمها مخطوطا، وأهم هذه المؤلفات كتاب (الصناعتين)، ويريد ب(الصناعتين) الكتابة والشعر.

كلمة (الصناعتين) التي ذكرها أبو هلال العسكري هي ترجمة لكلمة الفن للتمييز بينها و بين العلم، و كذلك سمي الأدب ــ صناعة ــ لما فيه من المهارة في إصابة المعنى الخيال، جمال الفكرة و حسن الصياغة ....الخ.

أما تاريخ هذا المصطلح في الأدب العربي، فلعل بن السلام كان أول من استعمل ذلك حين قرر أن الشعر ــ صناعة ــ و كذا بشر بن المعتز في صحيفته، و قدامة الذي ذكر أن الشعر صناعة، و كل صناعة لها طرفان : غاية في الجودة، وغاية في الرداءة، وبينهما وسائط.

أجمل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب (الصناعتين) الكتابة و الشعر، و قد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره و نظمه من غير إخلال ولا إسهاب، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا تكلم فيها عن موضوع البلاغة وعن تمييز الكلام جيده من رديئه، و باب في معرفة صنعة الكلام و ترتيب الألفاظ، و باب عن حسن النظم وجودة الوصف، و باب في مبادىء الكلام ومقاطعه، و ينضوي تحت كل باب من هذه الأبواب فصول تتراوح ما بين فصلين إلى خمسة و ثلاثين فصلا كما هو الحال في البديع[1] والغاية من علم البلاغة فيما نص أبوهلال العسكري هي أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن وهي فكرة كثيرة الذيوع عند المتقدمين، فعلوم العربية في عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن الكريم. وهم يريدون أن يطمئن المؤمن إلى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب. و هنا له غايات أخرى ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء[2].

---

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 3.

2 – المصدر نفسه، ص 4.

لقد أشار أبو هلال إلى أن الكتب المصنفة في ذلك الفن كانت لعهدة قليلة، وإن أشهرها كتاب البيان و التبيين للجاحظ، و هو في رأيه كتاب جم المنافع لما اشتمل عليه من جيد الفصول، ثمّ يتحدث عن السبب الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب فيقول : " فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، وقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانة الشرف، والنبل، و وجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة وكان أكبرها وأشهرها كتاب ــ (البيان و التبيين) لأبي عثمان عمرو الجاحظ .... فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعته الكلام نثره ونظمه ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير و إخلال [1].

فالكتاب هو محاولة أراد أبو هلال العسكري أن يتجنب زلات ومآخذ ممن سبقوه في التأليف البلاغي، و قد أشار إلى أنه لم يؤلفه على طريقة المتكلمين وإنما ألفه على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب[2]. و الدارس يدرك أن صاحبه قد أتم فيه تقريبا بكل ما عرف حتى عصره من مباحث علوم البلاغة.

لنصل إلى أن أبا هلال العسكري بكتاب (الصناعتين) قد وضع اللبنة الأولى في بناء النظرية البلاغية، فقد ضم كثيرا من معارف سابقيه وأضاف إليها كثيرا من مجهوده، كان لها تأثيرا على من لحقه، كما يعلن الكتاب عن بدء مرحلة واعية في لمّ المادة البلاغية المشتتة في الكتب الأخرى، وجعلها في مصنف واحد يقدم على منهجية واضحة في عرض أبواب وفصول المادة مما أنتج ترتيبا محكما و تنظيما جيدا.

أثر المتقدمين في ثقافة أبي هلال وثورته البلاغية:

بادئ ذي بدأ نتساءل: ما هدف أبي هلال من تأليف كتاب (الصناعتين)؟ وما هو المنهج الذي سار عليه لبلوغ أهدافه ؟ وهل تفرد بهذا المنهج عمن سبقوه في البحث البلاغي والنقدي ؟ وهل كان أبو هلال مقلدا أم كان مدرسة قائمة بذاتها.

لقد سبق وأن ذكرنا أن ما تقدم من النقد كان أحكام ذاتية لا يمكن أن ترقى إلى أن تعتبر مدارس لها مناهجها وطرائقها الخاصة. ثم جاءت بعد ذلك مناهج النقد العربي عن طريق

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 5.

2 – المصدر نفسه، ص 9 .

اللغويين والنحاة الذين أسّاوا علمهم في الصدر الأول، وهم العالمون بلغة العرب وهذه الطبقة تعتمد في إصدار أحكامها على المأثور القديم. فكان كل من هذه الطوائف يتناولون الشعر بالنقد فكان نقدهم موضوعيا، ناظرين إلى فن الشعر كشيء بعيد كل البعد عن ذواتهم وعواطفهم وتأثرهم. وكان لبعض النقاد العناية بالطريقة التاريخية، فيتعرضون للشعر وبيئته وصحة نسبته لقائله وذلك بحرصهم الشديد على سلامة هذا التراث من الشوائب والطفيليات.

لتنشأ طبقة أخرى كان نقدها ذاتيا قائما على أحاسيس الناقد وميوله وتأثره ثم عند الاحتكاك بالآخر(عند ترجمة كتب اليونان) نشأ نقد جديد يتسم بثقافة جديدة اعتمد على منهج جديد هو منهج المتكلمين الذين عنوا بالبحث في إعجاز القرءان. ويمتاز أصحاب هذا المنهج بخاصية الجدل والمناقشة والتشديد اللفظي واستعمال المقاييس الفلسفية المعتمدة على قواعد المنطق. وكل هذا سبق وأن تعرضنا له بالتفصيل في دراسة الكتب النقدية التي سبقت أستاذنا أبو هلال. إلا نه ليس معنا ما تقدم أن هناك انفصالا كليا بين هذا المنهاج بل جاءت مكملة لبعضها، وحتى أنك تجد أحدها تأثر بما سبقه ثم ثار عليه وقد تجد من النقاد من استحـــوذ على كل هذه المناهج، فابن قتيبة مثلا يقول أحد الكتاب: "وهو إلى جانب هاتـين الناحيتين: ناحية الإعراب وناحية اللغة، ينهج نهج العلماء في التنظيم العلمي، والولـوع بالأقسام، ويعالج نواحي أخرى علاجا فنيا يشهد له في سلامة الذوق، من ذلك تكلمه في الطبع والصنع وأشعار العلماء واللفـظ والمعنى ومحاولة التجديد ودواعي الشعر إلى غير هذه المباحث المختلفة في مناهجها وأسسها "[1].

فهذا ناقد واحد إستعمل عدة مناهج في دراسة الشعر والشعراء. أما أبو هلال العسكري فكان هدفه وضع معالم بلاغية تكون مقاييس يعتمد عليها في نقد الأدب.

نحاول الآن الإجابة عن الإشكالات التي طرحناها: فالأهداف التي من أجلها ألف أبو هلال العسكري كتابه (الصناعتين)، قد أوضح لنا هو نفسه معالم الطريق، وأساس هذه المعالم.

---

1 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص 94.

إعجاز القرآن الكريم :

كانت أم الغايات التي من أجلها ألف كتابه هي غاية دينية أولا وأدبية ثانيا أما الأولى فهي إثبات إعجاز القرآن، وفهم النواحي التي تفرد بها كتاب الله عز وجل. مؤكدا للمشككين أن حجة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي الكتاب الكريم، قمة ما وصلت إليه البلاغة والفصاحة. وعجز العرب عن الإتيان بمثله لقوله تعالى ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بصورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾[1] ومنهم من قال بمذهب الصرفة، أي أن العرب صرفوا عن الإتيان بمثله، وقد قال بذلك " أبو إسحاق إبراهيم النظام " [2].

وقد فشا هذا القول في العصر العباسي فانبرى للرد على هؤلاء جماعة من العلماء المخلصين، مبينين وجوه الإعجاز في القرآن مأكدين أن العرب لو استطاعوا أن يأتوا بمثله لما تأخروا برهة وما انهزموا أبدا، وكيف لا وهم المتحدون بالدين الجديد ليبقوا في الصورة لوحدهم. وبهذا العجز ــ وهم أهل الفصاحة والبيان ــ وقعت عليهم الحجة عند جميع من جاء بعدهم.

لقد كان أبو هلال أحد أولئك المدافعين عن دينهم، فيقول : " اعلم علمك الله الخير ودلك عليه، وقيضه لك...أن أحق العلوم بالتعليم وأولاها بالحفظ بعد المعرفة بالله –جل ثنـــاؤه– علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصدق النبوة التي رفعت أعلام الحق ...وأزالت شبه الكفر ببراهيـــنها، وهتكت حجب الشـــك بيقينها "[3].

ثم يسترسل في إيضاح الحدود التي يستطيع بها علم البلاغة أن يصل إلى إثبات هذا الإعجاز " ولا سبيل إلى إدراكه والاطمئنان إليه إلا بمعرفة الفصاحة والبلاغة، فإن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن... وقبيح للفقيه

---

1 – سورة البقرة الآية 23-24.

2 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص95.

3 – المرجع نفسه، ص 96.

المؤتم به، والقارئ المهتدى بهديه والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته ...وبغير العربي الصليب، والقرشي الصريح، لا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التي يعرفه منها الجنزي والنبطي، وأن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي"[1].

ومما سردنا من آرائه يتضح لنا أن الإيمان لديه لا يكون تقليديا وإنما يكون يقينيا بالدليل والبرهان. وفوائد البلاغة لدى أبو هلال العسكري – للعالم– ثلاثة :

1– إدراك الإعجاز القرءآني إدراكا مبنيا على النظر والتذوق والـــــفقه، لا إدراكا تقليديا قائما على الإيمان المجرد، و التسليم من غير تبصر كإيمان العوام، وتلك أشياء يحسها ويلقاها المسلم المستنير والعربي الأصيل، القادر على التفريق بين الأساليب.

2– فائدة نقدية وهي إعانة العالم على النقد والمفاضلة والقـــــدرة على تمييز الحسن من الرديء والهزيل من السمين، وعلم البلاغة هو المساعد على تقديم معايير الحكم وبه يموقع أو يموضع لرأيه مكانا بين النقاد.

3– فائدة إنشـــائية يستفاد من البلاغة –خاصة لدى الأديب – إرهاف الحـــس، ويستطيع بالبلاغة –كما سبق وأن أشرنا– تمييز جيد الألفاظ من رديئها، وأن يختار للأديب لشعره الرائق ويتجنب وحشي الألفاظ وكدرها، فالبلاغة هي التي توجه مراتب الإحسان والإصابة ليتثبت بها، وتريه مواطن الضعف والخطأ ليتحاشاها.

إذا فهذه الثلاثية هي أهداف البلاغة في عقيدة أبي هلال النقدية. فهو قد وضع البلاغة لإثبات الإعجاز القرآني والنقد لتمييز جيد الأدب من رديئه.

وقد قدم لهدفه النقدي مناقشة آراء بعض من سبقوه من العلماء ونقاد الأدب، فقام بتفنيد الأحكام التي اهتدوا إليها – ومن ذلك نقده لعلماء العربية في استحســـانهم بيتي ذي الرمة :

رمتني مَيّ بالهوى رميَ ممضع من الوحش لوْط لم تعقه الأوالس
بعينين نجلاوين لم يجر فيهمـــا ضمَانُ وجيد حَليّ الدر الشامـــس

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري مقاييسه البلاغية والنقدية، ص 96.

وقولهم فيهما : أنهم ما سمعوا أحسن ولا أفصح منهما.لا يعجب أبا هلال هذا الحكم، بل يصدر حكما أدبيا صحيحا يعتمد فيه على ذوقه الخاص، ويصف البيتين بأنهما من الكلام الفج الغليظ، والوخم الثقيل الذي لا حظَّ له من الاختيار[1].

ثم يتعرض لاستجادة العتبي قول الشاعر:

ولو أرسلت من حنيـ ـك مبهوتا من الصيـن

(المبهوت:السائر على غير هداية)

لوافيتك قبل الصبـ ـح أو حين تصليـن

ويرى أبو هلال أنهما إن جاز أن يوصفا فلا يجوز وصفيهما إلا بدناءة اللفظ وخساسته، وخلوقه المعرض وقباحته..."[2]. وأمثلته في ذلك كثيرة ويخرج العسكري من هذه التعليقات إلى إصدار أحكاما يرتضيها. ويرى أن هؤلاء الأعلام قد أخطأوا في آرائهم صادرين أحكاما لا تستند إلى صحة ولا ذوق سليم، فرأى من الضروري تأليف كتاب لتصحيح هذه الأحكام الانطباعية الذاتية تارة والتاريخية والموضوعية تارة أخرى، فهي في رأيه معظمها ارتجالي. واضعا أسس ثابتة تصدر عنها أحكام أكثر دقة وصوابا فيقول في ذلك: "فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقف هذا العلم من الفضل ومكانته من الشرف والنبل ووجدت إليه الحاجة الماسة، والكتب المصنفة فيه قليل، وكان أكبرها وأشهرها كتاب (البيان والتبيين) لأبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة... إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه من صنعة الكلام نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال وإسهاب وإهذار"[3].

---

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري مقاييسه البلاغية والنقدية، ص 99.

2 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 7.

3 – المصدر نفسه، ص 11.

ويمكن إستخلاص مما تقدم ما يلي :

1- رؤاه للأقدمين أنّ آراءهم كانت ضعيفة ذاتيـــة، وأحكاما ناقصة لا تعتمد عـلى أساس وهو غير متفق معهم تمـاما.

2- معرفته لعلم البلاغة وإقراره بفضله، ورأى أنه ضروري للعالم والمتعلم والأديب وأنه أحق العلوم بالدراسة.

3- اعتقاده بأن التأليف في هذا العلم كان يسيرا جدا وها مالا يتفق مع هذا العلم، ثم حث على الاهتمام به لعظم قدره وسمو رسالته.

4- اعترافه بأن "(البيان والتبيين) "خير الكتب التي تعرضت لهذا العلم، ويعيب عليه سوء تنظيمه.

5- أمله بل اعتقاده أن يكمل هذا النقص عن طريق تأليف مؤلّفا علميا منظما يلائم شرف هذا العلم.

منهج أبو هلال العسكري:

يقول أبو هلال " وليس الغرض من هذا الكتاب (الصناعتين) سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام في هذا الفصل. "[1]. ويقول في كيفية نظم الكلام وفضيلة الشعر وما ينبغي لتأليفه "...فإن كنت متكلما، أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد... فتـحظ ألفاظ المتكلمين مثل الجسم، والغرض والكون، والتأليف والجوهر فإن ذلك هجنة. وخطب بعضهم فقال :إن الله أنشأ الخلق وسواهم، ومكنهم ثم لاشاهم، فضحكوا منه. وقال بعض المتأخرين:

نور تبيّن فيه لاهـــــــوتية فيكاد يعـــلم علم ما لن يعلمـــــا

فأتى من الهجنة مما لا كفاء له" [2].

يبدو من هذين القولين نفور أبي هلال من مذهب الكلاميين في بحث البلاغة، مفضلا عليه مذهب الأدباء من الشعراء والكتاب. أما أسلوب المتكلمين فأسلوب يصدر عن منطق شكلي،

1 - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 129.

2 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص 108.

ويُعنى بالتقاسيم العقلية، والنظرات الفلسفية مؤيدين القضايا الدينية بالأدلة العقلية، الفلسفية. ومن أول الطريق قرر أبو هلال ألا يسير في طريق قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" الذي تأثر فيه قدامة بمذهب أرسطو.

وقد قام أبو هلال في كتابه (الصناعتين) بالإتيان في المقام الواحد بعشرات الأمثلة والشواهد من القرآن والحديث وكلام العرب شعرا ونثرا، وقد اعتمد في كتابه على الذوق في النقد الأدبي، غير مكتف بالصحة العقلية والسلامة النظرية.ويمتاز كتاب (الصناعتين) بالإكثار من الشواهد الأدبية شعرها ونثرها. ولم يكن أبو هلال في كتابه هذا ناقدا أديبا فحسب، بل خبيرا بالمذاهب الفلسفية، عارفا بآراء قدامة بن جعفر.

ويرى بعض النقاد أن أبا هلال كان متأثرا بأسلوب المتكلمين، وأنه نهج منهج قدامة بل إنه هو الذي أحيا مذهبه الكلامي في النقد، جاعلا من موقفه من قدامة كالشارح لنصوصه، فيوضح ويفصل، وينهج نهجا تقريريا تعليميا، واستطاع التخفي من أمره هذا وراء الإكثار المسرف من شواهد القرآن و الحديث والشعر، بما له من دراية بها وسعة إطلاع عليها، وربما كانت هذه الإحاطة تنقص قدامة فأكمل هذا النقص ومكن لمذهب قدامة، أو قل مكّن للمذهب العلمي الفلسفي في نقد الأدب [1].

أن دعوة أبو هلال البراءة من مذهب المتكلمين وَهْمٌ و غلطٌ، ولعل ما سبق وأن أشرنا له في قوله عن كتاب الجاحظ (البيان والتبيين)، (إن الإبانة عن حدود البلاغة و أقسام البيان والفصاحة المبثوثة في تصاحيفه، ومنتشرة في أثنائه) لعرفت أن الرجل غريق في مذهب المتكلمين، وأن غايته من تأليف كتابه (الصناعتين) هو الإبانة عن الحدود والتعاريف، وتصحيح الأقسام بالنظر العقلي والتنظيم العلمي وهذا لا يختلف قيد أنملة عن مذهب المتكلمين.

وهناك حقيقة أخرى أن أبا هلال كان عالما نحويا ولغويا، فضم مذهب المتكلمين – بطريقة ما – إلى مذهب النحاة واللغويين، وتلك ثقافات عصره اجتمعت لديه فجاء كتابه جامعا لها. والأكيد أن أبا هلال انتهج في كتابه (الصناعتين) نهجا علميا محضا، معالجا فيه كُنهَ وجوهر الشعر، ودرس الألفاظ والمعاني. وفصل ما تعلو به وما تتضع، ويعد أبو هلال

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري مقاييسه البلاغية والنقدية، ص 112.

أول من حول أساليب النقد إلى مناهج بلاغيه. أما في الأدب فقد رأى خلط من سبقوه، فأراد وضع أسس للأحكام، واستدراك ما فات الجاحظ من تنظيم علمي. وقد ابتعد كل البعد عن أي شيء يرتبط بالمنهج التاريخي، تاركا إياه للعالمين بالأخبار والأنساب من الرواة والعلماء. ونحن نتساءل: هل نجح العسكري في وضع أسس و مقاييس تقاس بها الآثار الأدبية، وهل استطاع أن يصدر أحكاما قطعية على أحكام السابقين تبين صحتها أو خطأها؟

كان أبو هلال في بعض فصول كتابه (الصناعتين) ينسى شخصيته فيقف جهده عند ترسم خطأ السابقين من النقاد والعلماء، فيحصي أقوالهم في حدي الفصاحة و البلاغة وقد يكون الشرح من ثمرات غيره... بل تعجب حين تراه يجمع الرأي إلى ضده دون أن يرجح أحد الرأيين، بل ربما شرح الرأيين، وأيدهما بما وعت حافظته من شواهد القرآن والحديث والشعر والنثر... [1].

إن منهج أبي هلال في تناول النصوص هو (منهج المتعلمين) فقد تناول المتون بالضبط، ثم الشرح والتحشية والتحليل والتمثيل، والاستطراد في ذلك حتى تستنزف العبارة الواحدة شرحا وجهدا كبيرين وطول وقت .إذا (فهذا أسلوب تقريري تعليمي يكون بعرض الكليات، ثم تناول جزئياتها)[2].

خلاصة القول أن منهج أبي هلال "منهج الصناعة"يحرص عليها ويصطنعها، ولا يخفي إعجابه برجالاتها، ومقياسه للشعراء والأدباء هو مدى أحكامهم للصنعة وقدرتهم على النهل من معين البديع واستعمال محسناته في ضروب الكلام، ويظهر ذلك جليا في أمثلة للتجنيس فيها التكلف الممقوت، وفيها السجع المصنوع وقد استشهد بها ومن ذلك (هشمتك هاشم وأمتك أمية وجمحت بك جمح، وخزمتك مخزوم، وأقصتك قصي... وجنس أبو تمام أربع تجنيسات في بيت واحد، ولعله لم يسبق إليه وهو قوله:

بحوافر حفر وصلب وصلب وأشعار شعر وخلق أخـــــلق

ويقول أيضا :

لسلمى سلمان وعمرة عامـــر وهند بني هند وسعدى بني سعدى)

---

1 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري مقاييسه البلاغية والنقدية، ص 117.

2 - أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 113.

وهو مولع كثير بهذه الصناعة العجيبة وهذا الإكثار الغريب الذي لا يستسيغه إلا ذوو الأذواق المعقدة، والتكلف المقيت. أنظر إليه يقول في بيت امرئ القيس في وصف حصان:

له أيـــطلا ضبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفـــــل

وهذا من بديع التشبيه، لأنه شبه أربعة أشياء في بيت واحد.[1]

ويمكن إجمال منهج أبو هلال فيما يلي:

1- منهجه منهج المتكلمين في دراسة الأدب ونقده، وإن ادعى نفوره من مذهبهم.

2- عني بالتنظيم العلمي، وجمع الأحكام بعد أن كانت مبثوثة في (البيان والتبيين) وغيره من الكتب.

3- منهجه تقريري إذا تناول التعاريف والتقاسيم، أو يضع القواعد ويقسم الأقسام، ثم يشرحها ويحللها.

4- منهجه تعليمي للنقاد والأدباء.

5- منهجه منهج البحث والتنقيب في علم البلاغة.

مقاييس أبو هلال العسكري النقدية في (الصناعتين):

ينهج أبو هلال في (الصناعتين) - كما تقدم - نهجا تعليميا، كانت غايته إخضاع صناعتي الشعر والنثر لقواعد و مقاييس مطالبا الأدباء الإقتداء والالتزام بها. معتمدا في إصدار الأحكام على الدوق من خلال علم البلاغة الذي شرَّعَهُ وبين معالمه. وليست هذه القواعد والأسس الموجودة في كتاب (الصناعتين) من اختراع أبو هلال وحده، إبتكرها ابتكارا ولم يسبقه إليها أحد بل -سبق وأن أشرنا- كانت نتيجة الدراسات التي سبقته في هذا المجال.

ونلقى كتاب (الصناعتين) مقسما إلى دراسات في فني البلاغة والنقد، واضعا للأدب مقاييس لأكثر مناحي الكلام، لأن سابقيه من النقاد اختلفوا حول وضع مقاييس للفنون عامة وللنقد خاصة، فمنهم من أرجع النقد إلى الأشياء الذاتية الخالصة التي تعتمد على ما تبثه

1 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص 125.

النصوص الأدبية في خلجات نفوس القراء من انفعالات وهذه الأذواق مختلفة باختلاف أصحابها. مما يجعل أحكامهم معرضة للنقض والتناقض، ومعنى ذلك تعدد الأحكام بتعدد النقاد ثم تتغير بتغير الأحوال، وهذا ليس من طبيعة العلم ذي القوانين العامة الثابتة التي لا تتأثر بالملاحظة الفردية، ولا المؤثرات الزمكانية.

إن كلمة (صناعة) التي ذكرها أبو هلال ترجمة لكلمة الفن، للتمييز بينها وبين العلم... وكذا سما الأدب صناعة لما فيه من المهارة في إصابة المعنى، أو ابتكار الخيال، أو جمال الفكرة أو حسن الصياغة و التأنق في الأسلوب" [1].

وتأريخا لمصطلح صناعة في الأدب العربي فلعل ابن سلام الجمحي كان أول من استعمل ذلك حين قرر أن الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات.[2] وبما أن ابن سلام سابق عن أبي هلال فقد أخذ عنه ذلك فسما كتابه (الصناعتين)معالجا الكلام بشطريه الشعر والنثر مسميا كتابه عليهما (الصناعتين) الكتابة والشعر وكان الأجدر أن يسميه الشعر والنثر، لأنه لم يعالج فيه الكتابة وحدها بل عالج فنون نثرية أخرى كالرسائل والخطب والمناظرات وغيرها. وإذا كان اللفظ و المعنى ركني الأدب فقد جعلهما أبو هلال محور الدراسة في (الصناعتين)، فكان من السابقين في معالجتهما مبينا منزلة كل منهما في بناء الكلام وقد فضلنا أن نسير معه في جعل اللفظ والمعنى من الأسس في دراستنا لاستخلاص مقاييسه النقدية.

1- الألفـــاظ .

لا شك أن أبا هـــــلال ممن تشيعوا للصناعة وتعصبوا للألفاظ مثله في ذلك مثل الجاحظ، فكان مغاليا في تقدير قيمة اللفظ، جاحدا المعنى فلا يجعله شيئا، فيقول في ذلك : "إن الكلام إنما حسنه بما يكون فيه من سهـولة ونصاعة، وتخير لفظ، وأصابة معنى، وجودة مطالع، ولين مقاطع، واستواء تقاسيم... وموافقة مآخيره لمعاديه مع قلة ضروراته بل عدمها أصلا، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر فنجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه،

1 - أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 54.

2 - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص 6.

وجودة مقطعه وحسن وصفه وتأليفه"[1] إلى أن يقول بصريح العبارة " ليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في إجادة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب... وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا"[2].

إذا فالصناعة اللفظية في نظره هي مدار البلاغة، فالتأنق في اللفظ من أسمى الغايات في نظم الكلام، أو بعبارة أخرى يعد الافتتان بصياغة المعاني والتعبير عنها هو مجال التفاوت بين الأدباء إما أن تكون غاية الكاتب إفهام القارئ أو السامع فحوى الكلام فذلك مالا يراه أبو هلال "وهذا الرأي-ليس غاية الأدب الإفهام – يشبه إلى حد كبير نظرية أرسطو في الفن الأدبي ذلك أن البحث في الفنية هو بحث في الابتكار، وفي الوسائل التي تتخذ للوصول إلى شيء مبتكر قد يكون موجودا وقد يكون غير موجود، لأن الفنية موجودة في نفس مبتكرها، وفي طبيعة الأشياء المتحدث عنها"[3].

إذا فغاية الأدب عند أبي هلال هي الدلالة على ذاتية الأديب وليس غايته الإفهام، وقد تعلق العسكري بمذهب الصنعة مغفلا شأن المعنى وأبو هلال في هذا يساير الجاحظ الذي أكد أن المعاني يعرفها الحضري كما يعرفها البدوي، ويعرفها العربي كما يعرفها العجمي والحقيقة أن التفاوت بين طبقات الناس هو الحقيقة، ومن يستطيع أن يجحد تفاوت الناس في مواهبهم وذلك بالاستعداد و الوراثة أضف إلى ذلك أثر البيئة والثقافة.

على أن عالما أديبا يسبق أبا هلال بنحو قرنين من الزمان يعرف منزلة اللفظ، كما يفطن إلى منزلة المعنى في الحكم على الأدب وتقدير قيمته الفنية، ذلك هو بشر بن المعتز الذي كتب صحيفة ذكر فيها البلاغة، ودل على مطان الكلام والفصاحة، يقرر فيها " أن التوعر يسلم إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك المعاني، ويشين الألفاظ و الأديب الذي

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 57.

2 – المصدر نفسه، ص 57.

3 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 130.

يريغ معنا كريما عليه أن يلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن يصانا عما يدنسهما و يهجنهما"[1].

فليس الأمر كما يدعي أبو هلال، أن المعاني في استطاعة الجميع وبدرجة واحدة مهما اختلفت مواهبهم. وإذا تنكر أبو هلال للمعاني فإن الحقيقة تغالبه فما يلبث أن يقرها إما قاصدا أو غير قاصد في قوله: "الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين الألفاظ لأن المدار بعد إصابة المعنى ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة" [2].

ثم يقول: "لا خير فيما أجيد لفظه وسعف معناه"[3] فبعد هذا العرض الخاطف لرأي أبو هلال في الألفاظ والمعاني وتذبذبه تارة في تفضيل الألفاظ على المعاني نستعرض مقاييس الألفاظ التي وضعها فنجده قد وفق فيها أيما توفيق، وقد جمع هذه المقاييس في هذه العبارة : " إن الشعر كلام منسوج ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفا بغيضا، ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلا دنيئا " وقد قسم الألفاظ أقساما:

اللفظ الغريب:

يرى أن الغرابة تخل بالفصاحة، وتباعد بين الأسلوب ووصفه بالبلاغة فكثرة الغريب في الكلام تفسده، "والأديب الذي يميل إلى الإغراب في اللفظ أديب ملتوي الحس ليصدر عن ذوق ولا يعبر فيه صاحبه عن طبع، بل يصرح بأن الاستعانة بالغريب عجز... ولم ينج الأصمعي وهو الثقة الصدوق من نقد العسكري، لأن هذه الغرابة تنافي الوضوح والظهور في معنى البيان، وإنما الكلام الفصيح هو الذي تكون ألفاظه مألوفة"[4].

---

1 - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 58.

2 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص 128.

3 - المرجع نفسه، ص 130.

4 - أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 32.

الوحشي من الألفاظ:

ترك السهل السلس من الألفاظ و الإتيان بالوحشي منها يمقته أبو هلال واضعا هذا في خانة التعقيد مصطلحا عليه (إغلاقا) يؤدي إلى تغليق الكلام بعضه ببعض " فزهير بن أبي سلمى الجاهلي معيب لأنه أورد لفظا حوشيا هو قوله في المديح:

تقي نقـــــي لم يكثر غنيـمة بنهكة ذي القربى ولا يحقَلَّـــــدِ

فلفظ الحقلد – وهو الشيء الخَلِق– بشع وليس في لفظ زهير أبشع ولا أنكر منه"[1].

ومن الناس من صاروا لا يحبذون الكلام إلا إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد، ويفضلون الألفاظ الغليظة الكزة الغريبة ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا، وسهلا حلوا، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا وأعز طلبا وهو أحسن موقعا وأعذب مستمعا ولهذا قيل أجود القول أو الكلام "السهل الممتنع "فهؤلاء يصفهم العسكري بالجهل.

السهل الجزل:

إن أعلى ضروب اللفظ الجدير بالاحتذاء عند العسكري – ودوما في كتاب (الصناعتين)– هو السهل المطبوع الجيد أو السهل الممتنع والأديب المقتدر على تأليف هذه الألفاظ السهلة العذبة هو الأديب المطبوع سواء أكان التأليف شعرا أم نثرا ويضرب لذلك مثلا: والعباس بن الأحنف أشعر الناس في هذه الأبيات:

أليك أشكو ربي ما حـــل بي من صِـــــدّ هذا التائه المعجب

إن قال لم يفعل وإن سيل لم يبذل وإن عـــــوتب لم يعتـــب

صَبٌ بعصياني ولو قال لي لا تشرب البـــــارد لم أشـــرب

فهذا شعر حسن المعنى، سهل اللفظ عذب المستمع، قليل النظير عزيز التشبيه، ممتع ممتنع بعيد مع قربه صعب فبسهولته"[2]. إلا أن السهل تارة يصبح مرذولا مردودا، وإن كان معناه مكشوفا بينا فليس سهولة اللفظ وحدها مقياس القبول، وإنما يجب أن تقترن بقوة المعنى. "كما يكون السهل الجيد مقبولا لا يكون الجزل مقبولا ومقياس الجودة في الجزل أن العامة تستطيع أن تدركه وتقف على معناه، وإن كانت –العامة– لا تستعمله في محاوراتها، ولقد

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية ، ص 60.

2 – المرجع نفسه، ص 140.

مثل أبو هلال للجزل المختار من النثر بقول يحيى بن خالد:(أعطانا الدهر فأسرف ثم عطف علينا فغسف) وقول سعيد بن حميد (وأنا من لا يحاجك عن نفسه ولا يغالطك عن جرمه ولا يلتمسك رضاك إلا من جهته، ولا يستدعي برك إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب..."[1].

حروف الوصل والربط:

دعا العسكري إلى تجنب إعادة حروف الصلات أو الربط في موضع واحد "فمن المعيب أن يكتب مثل قول القائل (منه له عليه) أو(عليه فيه) أو (به له منه)، وسبيله أن تداويه حتى تزيله بأن تفصل بين الحرفين مثل أن تقول (أقمت به شهيدا عليه). ولا أدري أحدا كان يتبع العيوب فيأتيها غير مكترث إلا المتنبي فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام، حتى قال:

ويسعدني في غمرة بعد غمرة سـوح لها منـها عليها شواهد

فأتى بالاستكراه مالا يطار غرابة "[2].

الألفاظ وإيقاعها.

إن الولوع بالصناعة أدى بالعسكري إلى اختراع بعض المحسنات البديعية، وتجدر الإشارة هنا إلى اختراعه مقياسا جديدا أعطاه من الأهمية والاعتبار ما يفوق قدره وذلك هو (الازدواج) الذي عقد له بابا منفردا عن صنوف البديع الأخرى، ورأى أن منثور لا يحلو ولا يحسن حتى يكون مزدوجا يقول: "ولو استغنى كلامنا عن الازدواج لكان القرآن الكريم، لأنه في نسجه خارج عن لغة و كلام الخلق كقوله تعالى: ﴿**الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات و النور**﴾ و قوله تعالى: ﴿ **ولستم بآخذيه حتى تغمضوا فيه**﴾ وأما ما زوّج بينه بالفواصل فهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر**﴾.

1 - أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 153.

2 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ، ص 143.

وكذا للسجع من الاعتبارات ما للازدواج، فيقول: "واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل و الخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كانْ أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد..."[1].

ولا شك أن السجع و الازدواج يحدثان موسيقى وإيقاعا تشد أذن المتلقي، وبخاصة إذا كان الناثر ذا موهبة في نسجه دون استثقال و دون أن يبحث عليهما بحثا.الإكثار في الأسلوب: يقول: "قوة الكلام بقوة نظمه وتمام رصفه،لا بكثير لفظه، والمعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر و النهي سبيلها أن تؤكد غاية التوكيد، بجهة كيفية نظم الكلام"[2]. فالإكثار يورث الإملال في رأيه ونادرا ما ينجو صاحبه من الخطأ والعيب وأبو هلال لا يحبذ الإطناب مطلقا ولا الإيجاز، وإنما الإطناب والإيجاز يحتاج إليهما في جميع الكلام ولكل منهما حاجته وقد ذكر مواطن الإطناب وهي:

1- في الكتب والرسائل الديوانية لاشتمالها خطاب السلاطين في الأمور العظام والفتوح والترغيب في الطاعة والنهي عن المعصية سبيلها الإطالة لتملأ الصدور.

2- في المواعظ كقوله تعال ﴿**أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾ فجاء هذا التكرار حسن الموقع.

3- في خطب الصلح بين العشائر.

4- في إنشاد الشعر في مديح الملوك.

خلاصة مقاييس أبو هلال في الألفاظ المفردة:

1- اختيار ما كان سهلا جزلا لايشوبه شيئا من المستوحش و لغة العامة.

2- البعد عما يطمس به المعنى، وأن تكون الألفاظ دالة على معانيها.

3- تخير الألفاظ و تنقيحها، وأن تكون الحروف سهلة المخارج غير متنافرة.

4- ذكر الأسماء البغيضة في الشعر تفسده وإن كان لزهير بن أبي سلمى.

---

1 - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 152.

2 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص151.

5- يقبح الكلام بتكرار اللفظ الواحد في كلام قصير.

6- يجب ألا يخرج الأديب عن العادة في الاستعمال، لأن الخروج عن الطريقة ا لمسلوكة والنهج المعروف رديء.

7- يجب وضع كل لفظ في موضعه(ترتيبه ترتيبا صحيحا)فيقدم منها ما يحسن تقديمه ويؤخر ما يحسن تأخيره.

8- الشاذ ليس للمُحَدِثِ أن يقيس عليه، ولا أن يتخذ منه حجة.

2- المعـانـي:

من أوائل النقاد الذين فطنوا لقضية التجديد والتقليد أبو هلال العسكري مفرقا بين الإبداع والإتباع، فقسم المعاني قسمين :

القسم الأول:

يبتدعه صاحب الصنعة دون أن يقتدي بأحد، وهو هنا ينتبه إلى العامل النفسي، وأثر الانفعال في ابتكار المعاني، وهذا أمر حداثي سبق به مدارس التحليل النفسي التي ذاع صيتها في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر .

القسم الثاني:

عكس الأول وهو السير على هدي إمام صنعة، وهو لا يفضل قسم على آخر، بل يضع تنظيرا لاستحسان كلاهما مع شرط الإجادة. ولنستعرض مقاييسه النقدية للمعاني:

الغـلـــــو:

يستحسن أبو هلال الغلو، وذلك إقتداء بشيخه قدامة بن جعفر، ويَعُدُّ الغلو أجود المعاني. "وقـد مثل العسكري للغلو في المعاني، بقول طمحان مولى بن أبي السمط:

فتى لا يبالي الـــــمدلجـــون بنوره إلى ما به ألا تضـــــيء الكواكب

له حاجـــــب من كل أمر يشينـــه وليس له من طالب العرف حاجب

قال :هذا من الغلو. والغلو عند بعضهم مذموم وليس كذلك! ولو كان مذموما لما جعلوا هذين لبيتين من أمدح ما قال العرب ..."[1].

---

1 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 159.

الـــوحـــدة :

مقياس الشعر عنده هو وحدة البيت لا القصيدة فاعتد احتياج البيت لما بعده ليكمل معناه عيب من العيوب التي يجب تجنبها، مصطلحا عليه (التضمين)، وقد سبقه قدامة لذلك فسماه "المبتور".

صحة المعاني :

سبق وأن أشرنا أن أبا هلال لا يريد من المعنى إلا أن يكون صحيحا دون أن يضع مقياسا معينا نستطيع من خلاله أن نحكم على المعاني بالصحة أو الخطأ وفقا لقاعدة بعينها. وقد ألمح لذلك بإشارته إلى المعاني الخاطئة كأن يكون الكاتب كاذبا، كقول القائل : حملت الجبل وشربت ماء البحر، و من الخاطىء أن يعمد الكاتب إلى تصوير المحال كقول القائل: آتيك أمس، وأتيتك غدا. فكيف لأبي هلال لو انبعث في عصر الإنزياح اللغوي والتحليل السيميائي؟

مقاييسه في معاني فنون الشعر:

فـــن المديـــح:

على المادح ألا يتجاوز، أو يركز على الفضائل التي تخص النفس وما يليق بأوصاف الجسم كالعقل والعفة والشجاعة والحسن والبهاء وما إلى ذلك، ومثال ذلك : " ما قال بن قيس الرقيات في عبد الملك بن مروان:

يأتلق التاج فوق مفرقـــــه على جبيـــن كأنـــــــــه الذهب

فغضب عبد الملك وقال : لقد قلت في مصعب:

إنما مصعب شهـــاب من الله تجلـــت عن وجهه الظلـــــــماء

فأعطيته المديح بكشف الغمم وجلاء الظلم، و أعطيتني من المدح مالا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النظارة." ومن المديح ما هو أقرب إلى الذم منه إلى المدح ومن ذلك " قول أيمن بن خريم أيضا في بشر بن مروان

وإنـــا قـــد رأيـــــنا أم بشـــــر كأم الأســـــــد مـــــذكارا ولـــــود

لأن الناس مجموعون على أن نتاج الحيوانات الكريمة أعسر وأولادها أقل"[1]. فكيف أصبحت أم بشر ولودا، فأم الأسد (اللبؤة)لا تلد إلا بعسر وأولادها قليل، فكأن الشاعر يذم أو يشبهها كذبا إن صح التعبير.

وآراء أبو هلال تجدها بأمثلتها عند أستاذه قدامة بن جعفر في نقد الشعر الذي جعل معاني المديح أنما هي الفضائل النفسية يقول: " إنه لما كانت الناس من حيث هم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك إنما هي العقل و الشجاعة والعدل و العفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربعة مصيبا والمادح بغيرها مخطئا "[2] وهذا ما جاء به أبو هلال من آراء في كتابه (الصناعتين) مضيفا عليه شيئا من الشروح.

فــن الهجــاء:

يعتقد أبو هلال أنه لا يمكن أن نصف الشاعر بالهجَّاء إلا إذا سلب من المهجو الصفات المستحسنة الجميلة (النفسية) ورمي أو تثبيت الصفات السيئة المستهجنة عليه من لؤم وبخل وشره. ومن الهجاء قول بعضهم:

اللؤم أكبر من وبر ووالده واللؤم أكرم من وبر و ما ولدا

قوم إذا جن جانيهم أمنــوا من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا

وأبو هلال لا يرى من جيد الهجاء التعرض للعيوب الجسمية ومثال ذلك..

فقلت لها ليس الشحوب على الفتي بعار ولا خير الرجال بسمين

ومن الغريب أن يطرح العسكري هذا النوع من الهجاء – الجسدي – مع أنه أقرب إلى الناس من أذهانهم، وهذا النوع من الأهاجي الطبيعية المعروفة لدى البدو والحضر والأميين والعالمين، وأضف إلى ذلك أن الماديات – الأجساد – أقرب إلى الذهن من المعنويات – النفوس –. صحيح أن العيب النفسي شديد الوطأة إلا أن العيب الجسدي من قصر مفرط وطول مفرط، أو من بياض أو سواد، أو دمامة الوجه أشياء بائنة ظاهرة للعيان

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية،ص 162.

2 – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 28.

لا تحتاج لمن يريد وصفها لتجربة أو استظهار[1]. و مرة أخرى لم يتبع العسكري هذا المذهب إلى إقتداء بأستاذه قدامة في الهجاء أيضا.

فـن الـوصـف :

يقول قدامة بن جعفر : " ولما كان أكثر وصف الشعراء، إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه و ألاها حتى يحاكيه بشعره، ويمثله بنعته."[2]

ولمثل هذا ذهب العسكري فيرى أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصور الموصوف لك، فتراه نصب عينيك كقول يزيد بن عمر الطائي :

ألا من رأى قومي كأن رحالهم نخـــيل أتاها عاضـــد فأمالها

فهذا التشبيه يصور لك القتلى مصرعين، ويصف أبو هلال الأعمال النثرية من رسائل وخطب بالتشاكل لعدم وقوعها تحت سلطة الوزن و قافية، أضف إلى ذلك تشاكلها من ناحية الألفاظ و الفواصل – تمتز الألفاظ بالسهولة والعذوبة –وقد يختلفان في أن الرسالة يكتب بها والخطبة يشافه بها.

لقد تكلم في (الصناعتين) عن الشعر والنثر ووجوه الاختلاف بينهم، وأما معاني الأدب من حيث الحقيقة والخيال فإن العسكري تكلم فيها، وعالجها أيضا علاجا شافيا، فعقد بابا للتشبيه وآخر للاستعارة وثالثا للكناية وجعل لكل منها مقياسا للجودة والاستحسان، وكل ما يتصل بناحية الخيال[3]. ونحن سنتناول هذه الأمور لاحقا.

مقاييسه البلاغية وأثرها في الدرس البلاغي :

يعد أبو هلال من الأوائل الذين كتبوا وصنفوا في هذا العلم باستفاضة، وإن كان الجاحظ قد سبقه إلى القول في الفصاحة والبلاغة " إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان و الفصاحة مبثوثة في تضاعيفه و منتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة،لا توجد

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 162.

2 – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 30.

3 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص7.

إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير."[1] فقد زاد على ما جاء به الجاحظ فحلل وشرح وأضاف من عنده الشيء العظيم. ولا شك أن محاولات من سبقوه كان لها عظيم الأثر في صقل تصوره لهذا العلم.

فقد كان اللفظ عند أبي هلال حجر الزاوية، وعلم البلاغة قائم عليه، وهو أشد العلماء مغالاة في تقدير اللفظ، لأنه من أنصار الصنعة، وبما أن العسكري قد حَظِيَ بهذا المكانة فمن سنة العلم أن يظهر من يناهضه ويقف لآرائه، مبجلين المعنى مهملين قضية اللفظ فكان إمام هذه الطائفة وعلم من أعلام الدرس البلاغي وهو عبد القاهر الجرجاني المتشيع للمعنى حيث رأى أن الأديب لا يحتاج جهدا في اختيار الألفاظ مادام المعنى حاضرا في الدهن فيقول: " الأديب لا يتطلب جهدا في اختيار اللفظ أو إجادة الصياغة ما دام المعنى حاضرا في الذهن، ولا يتصور أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى، وأنت إذا أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال، ولكنك إذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وإزاء ناظرك."[2]، و الجرجاني يؤكد مرة أخرى أن فصاحة الألفاظ لا تكون إلا من خلال النظم وليس لسبب في ذاتها.

ثم يستمر الجرجاني في تنظيره للمعاني فيقول: " أما ما قد يكون للكلام من تقديم أو تأخير فمرده إلى حصول هذا التقديم و التأخير في النفس فإن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال أن يكون مثله أولا في النطق."[3]

ليأتي من بعده عالما ليس عنده نفس التعمق الذي عند عبد القاهر، ولكنه لا ينقصه الذوق والإطلاع، فيخالف عبد لقاهر ولا يرضى رأيه، " بل يؤثر جانب اللفظ على جانب المعنى في تقدير البلاغة، أو تقدير القيم الفنية للأدب، ذلك العالم هو ضياء الدين بن الأثير، الذي يرى النظم والنثر أنـــــما يكون لحسن فيها من الألفاظ، ويستدل بالذوق شاهدا، كما يستدل بالصياغة، و التجاء الأديب إلى التغير والتأنيق في الألفاظ."[4]

---

1 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 8.

2 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 49.

3 – المصدر نفسه، ص 51.

4 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 191.

وقد عالج قضية اللفظ والمعنى من أتى قبله وبعده وقد سبق وأشرنا إلى ذلك ولا ضير في أن نذكر بعض الإعلام ممن خاضوا في هذه القضية منهم المبرد حيث يقول " ليس من أحد في زماني إلا وهو يسألني عن مشكل من معاني القرآن أو مشكل من معاني الحديث النبوي، أو غير ذلك من مشكلات علم اللغة فأنا إمام الناس في زماني هذا ... "[1]

ونحن نطرح هذا التساؤل : ما الفائدة أن اللفظ يجر المعنى؟ وما جدوى أن المعنى يتطلب اللفظ ؟ قام أبو هلال بتقسيم الألفاظ إلى طبقات، مبينا المقبول منها والمردود، كما قسم المعاني إلى جديد مبتكر، ومسبوق مستهلك. فالقسم الأول يبتدعه صاحب الصناعة من غير إمام يقتدي به، والقسم الثاني يحتذي على مثال سبق ورسم فرط.

وظيفة البلاغة لدى أبي هلال :

يرى أبو هلال أن أولى العلوم بالتعلم بعد معرفة الله، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة وذلك لاعتبارات منها:

اعتبار ديني : المتجلي في معرفة الإعجاز، فينبغي من هذه الجهة أن يقدم إلتِمَاس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله ...[2]

اعتبار أدبي: ويأتي نظريا بعد الاعتبار الديني يقول العسكري في هذا الصدد: "ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة، منها : أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه ...عفى على جميع محاسنة، وعمى عن سائر فضائله لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر بارد بان جهله، وظهر نقصه ..."[3]

مما تقدم على تقسيم الوظيفة الأدبية إلى قسمين :

1- القدرة على تمييز الجيد من الرديء خاصة لأهل التصنيف والتأليف .

2- القدرة على الكتابة شعرا أو نثرا .

لقد قام العسكري بتأليف كتابه (الصناعتين) بطريقة منهجية وذلك بتصنيف المعارف التي انتهت إلى عصره في الموضوع، وتنظيمها تنظيما يسهل الاستفادة منها. فيقول: " رأيت

---

1 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 192.

2 - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 9.

3 - المصدر نفسه، ص 10.

أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعه الكلام نثره ونظمه ويستعمل مما محلوله ومعقوده."([1])

تصوره لمنهاج البلاغة في (الصناعتين):

تناول أستاذنا في كتاب (الصناعتين) ما يهم المرسل و المتلقي و ما يهم الرسالة. فتناول ما يجب أن يكون علب المرسل من معرفة و خبرة مراعاة للأحـــــوال، خاصاً حال الكاتب بعناية خاصة لما تتطلبه وظيفة الكاتب من معارف ضرورية. ثم تناول أحوال المخاطب وما يكون للإيجاز والإطناب ثم الفضل والوصل من أثر في النفس.

وقد اهتم بالأثر الآني الذي تتركه الرسالة، وكيف يكون الخطاب ناجعا، ومن ثم تصبح البلاغة سلطة أمام النص .أما على المستوى النصي، فقد تناول العسكري الصور البلاغية حيث استحوذ (البديع) على السواد الأعظم من الكتاب (أكثر من نصف الكتاب) .ويمكن أن يكون تطويرا لكتاب (البديع) لابن المعتز يقول العسكري: " فهذه أنواع البديع والتي ادعى مـــــن لا رواية له ولا رواية عنده، أن المحدثين ابتكروها، وأن القدماء لم يعرفوها وذلك لما أراد أن يقحم أمز المحدثين لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب كان غاية في الحسن ...وقد شرحت في هذا الباب فنونه، ...وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع: التشطير، المحاورة، التطريز، المضاعفة الاستشهادة والتلطف... "[(2)]

ثم يتعرض لصور الإنزياح، فكانت الصور البيانية ذات ميزة بلاغية حيث تمكن إرجاعها إلى باب الإنزياح عن المعنى البسيط إلى معنى ثانٍ .وقد ذكر كل ذلك في فصول وهي : الاستعارة، الإرداف، المبالغة، الغلو، الكناية، التعريض، الاستشهاد والمضاعفة. وأغلب هذه الصور قائم على الإرداف والمجاورة أو ما يمكن إضافته تحت باب الكناية، وبعضها يرجع إلى علاقة المشابهة في حين يرجع بعضها الأخر إلى المبالغة في المعنى الناتج عن إحداهما (المجاورة والمشابهة).

---

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 13.

2 – المصدر نفسه، ص 13.

ومما يتعرض له أيضا قضية تركيب المعاني في العلاقات الشكلية المنطقية التي تجمع بينها وهذه العلاقات هي (التضاد التقابل الترادف). ويعد العسكري من أوائل البلاغيين الذين اهتموا بالجانب الصوتي الإيقاعي في الأدب، وذلك: " في حديثه الدائم عن التوازن باعتباره قيمة أدبية كبيرة الأهمية، ومن المسلم عندنا أن المكون الصوتي مكون توازني...و الصور الصوتية التي قدمها العسكري هي: التجنيس، ورد الأعجاز على الصدور، والمجاورة والتعطف. التعريض و التشطير و التطريز و السجع..." [1]

وقد تعرض أيضا لقضية أخذ وتداول المعاني أو ما يصطلح عليه حديثا التناص والذي كان يعرف بالسرقات الأدبية.

علم البلاغة وجهود أبي هلال العسكري فيها:

سبق وأشرنا في الفصل الثاني لجهود أبي هلال في البلاغة وأثره على البلاغيين، فهو يعد صاحب مدرسة بلاغية ذائعة الصيت، لأنه كان صاحب بصيرة (نقدية) نافذة، ومفكر من الطراز الجيد، ولا شك في تأثره بسابقيه وخاصة أستاذته الجاحظ و قدامة بن جعفر وابن قتيبة وغيرهم، إلا أنه استطاع أن يتميز عنهم وذلك بتجنب ما وقعوا فيه من غلط وخلط وقد أشار إلى ذلك في كتابه (الصناعتين) .فكانت إجادته جـديرة بالتنويه، ولا يستطيع أحد أن يبطره حقه في أنه صاحب ثورة تجديدية -في عصره- استطاع بهذه الثورة أن تبلغ أبحاثه الآفـاق، فكان صاحب مدرسة تخرج منها قطب من أقطاب البلاغة العربـية وهو عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم.

وبعد عرضـنا -عرض خاطف- في الفصل السابق لوظيفة البلاغة وتصور أبو هلال لمناهجه البلاغية، نعود إلى التحليل الإجرائي لبعض القضايا الهامة التي قام عليها هذا العلم ومن ذلك:

1- علم البيـــان:

فهذا العلم " عرفه البلاغيون على أنه العلم الذي يبحث في التعبير عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة في وضوح الدلالة على المعنى المراد." فقد تعرض أبو هلال للتشبيه في

1 - د. رابح ديب، المحاولات الأولى لبناء بلاغة عامة حتى نهاية القرن الرابع هجري، دار النشر والتوزيع القاهرة، ط.3، 1999، ص: 194.

(الصناعتين) – باعتبار التشبيه أحد فروع علم البيان– فأفاض القول فيه وفي صنوفه وفي الجيد والقبيح منه وذكر أركانه، لأن التشبيه أكثر أبواب الخيال ورودا في أشعار العرب كلامهم وربما كان هذا الأسلوب أثر الأساليب البيانية قربا من الطبيعة للحاجة أليه في التوضيح والتزيين و التقبيح " وهو جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل منهم هو أكثر كلامهم لم يبعد "[1]

يرى أبو هلال " تشبيه الشيء بالشيء ولو شابهه من جهة واحدة، وعلى هذا قال عز وجل، (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام.) إنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها، لا من جهة صلابتها ورسوخها..." [2] وقد قسم العسكري التشبيه إلى ثلاثة أقسام:

أ– تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون، مثل تشبيه النهار بالنهار والماء بالماء.

ب– تشبيه شيئين متفقين يعرف اتفاقها بالدليل، كتشبيه الجوهر بالجوهر والبياض بالبياض.

ج– تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما، كتشبيه البيان بالسحر و الشدة بالموت.

ثم وصف أجود التشبيه ورأى أنه يقع على أربعة أوجه:

أحدهـــا:

إخراج مالا تقع عليه الحاسة ..وهو في قول الله عـــز وجل: **﴿والذين كفروا أعمالهم كـــسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾** [3] فأخرج مالا يحس إلى ما يحس، والمعنى الذي يجمعهما بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة إليه وأعظم حرصا عليه ...وهكذا قوله تعالى: **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد أشتد به الريح في يوم عاصف﴾**[4]

1 – المبرد، الكامل، ج.3، ص 42.

2 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 261.

3 – سورة النور الآية 39.

4 – سورة إبراهيم، الآية 18.

ثانيـــها: أخراج ما لم تجري به العادة إلى ما جرت به العادة كقوله تعالى:**﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما أتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾**[1] والمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الانتفاع بالصورة . ومن هذا الباب قوله تعالى:**﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾**[2] لجامع للمعنيين الحمرة ولين الجوهر وفيه الدلالة على عظم الشأن، ونفوذ السلطان.

ثالثهـــا: أخراج مـــــــالا يعرف بالبديهة إلى ما يـــــعرف بها، فمن هذا قوله عز وجـــــل: **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾**[3] قد أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها، والجامع بين الأمرين العظم..والفائدة فيه التشويق إلى الجنة بحسن الصفة.

رابعهـــا: إخراج مالا قـــــوة له في الصـــــــفة على ما له قوة فيها كقوله عز وجل: **﴿وله الجوار المـــــنشآت في البحر كالأعلام﴾** [4] والجامع بين الأمرين العظم... وعلى هذا يجري أكثر تشبيهات القرآن... وقد جاء في أشعار المحدثين... قول الشاعر:

وكنت أعز عـــزا مـــــن قـــنوع يعـــوضه صـــــــــفوح من ملول

فصرت أذل مـــــن معـــنى دقيق نه فقـــر إلى معـــــــنى جليـــل

فأخرج ما تقع عليه الحاسة إلى مالا تقع عليه." [5] وتعرض للتشبيه البليغ – الذي حذف منه وجه الشبه و الأداة – وإن لم يصطلح عليه هذا الاسم.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه جعل بعض الاستعارات تشبيهات، مع أنه عقد للاستعارة فصلا مستقلا. وللتفريق بينهما يرى العسكري : "أن الاستعارة ليس لها آلة و التشبيه له آلة فما كان فيه آلة التشبيه ظاهرة فهو تشبيه، وما لم تكن فيه فهو استعارة فقوله(زيد أسد) لا آلة فيه، فوجب كونه استعارة هذا من جهة، ومن جهة ثانية أن المفهوم من قولنا (زيد أسد) مثل

---

1 – سورة الأعراف الآية 171.

2 – سورة الرحمان الآية 37.

3 – سورة آل عمران الآية 133.

4 – سورة الرحمان الآية 24.

5 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 165.

المفهوم من قولنا لقيت الأسد، و(أتاني الأسد) فإن كان مفهومهما واحدا، في المجاز، فإذا قضينا بكون أحدهما استعارة وجب أن يكون الآخر كذالك من غير تفرقة بينهما."[1]

القاضي الجرجاني وهو أحد أئمة النقد في القرن الرابع الهجري و صاحب كتاب (الوساطة بيت المتنبي وخصومه) أعترض عن ذلك فقال: " وربما جاء ما بظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر نوعا من الاستعارة عُدَّ فيها قول أبو نواس:

و الحب ظهر أنت راكبـــــه فإذا صرفت عنانه انصـــــــرفا

ولست أدري هذا وما أشبهه استعارة و أنما معنى البـــيت أن الحب مثل ظهر أو كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه..."[2] وعلماء العربية يعرفون الاستعارة بأنها مجاز علاقته المشابهة. وقد ذكرها الجاحظ وعرفها بأنها " تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه."[3] فليست الاستعارة إذا إلا من محاسن الكلام، وليست ترفا ولا فضل يمكن الاستغناء عنها. والعسكري لما تقدم القول يفرق بين التشبيه جاعلا له بابا من أبواب البلاغة و الاستعارة يجعلها بابا من أبواب البديع بيد أنه يخلط في تارات أخرى بينهما.

وعند العسكري التشبيه في الكلام وجوه، منها:

تشبه الشيء بالشيء صورة مثل قوله تعالى: ﴿**والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم**﴾ [4] أخذه ابن الرومي فقال في ذم الدهر:

تأتي على القـــمر الساري نوائبه حتى يرى ناحلا من شخص عرجون

ومنها تشبيه الشيء بالشيء لونا وحسنا كقوله عز وجل: ﴿**كأنهن الياقوت والمرجان**﴾[5]... وكقول حميد بن ثور :

والليـــــــل قد ظهرت نحـيرته و الشمـــــــس في صفراء كالورس

ومنها تشبيهه معنى كقول النابغة :

---

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 200.

2 – القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي و خصومه، ص 40.

3 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 115.

4 – سورة يس الآية 39.

5 – سورة الرحمان الآية 58.

فإنـــــك شمس و الملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكـــب

وقد يكون التشبيه بغير أداة التشبيه كقول امرئ القيس:

له أيطلا ظبي وساقا نعامـــــة وإرخاء سرحان وتقريب تتفـــل

هنا إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام لأن الفرس لا يكون له أيطلا ظبي، ولا ساقا نعامة... وإنما المعنى له أيطلا كأيطلا الظبي، وساقان كساقي النعامة، وهذا من بديع التشبيه، فقد أربعة أشياء بأربعة أشياء في بيت واحد.

ومن بديع التشبيه قول الوأواء:

أسبلت لؤلؤا من نرجس فســـقت وردا وعضت على العناب بالبرد

فشبه خمسة أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد (الدمع باللؤلؤ، و العين بالنرجس، و الخد بالورد، والأنامل بالعناب، و الثغر بالـــبرد).[1] وفي النثر الفني، جر أبو هلال هذا المثال فقال : "وقال بعض الحكماء : العقل كالسيف، والنظر كالمسن."[2] ويواصل العسكري استعراض مقدرته على التنظير و الجمع والرواية في بيانه عن قبح التشبيه و عيوبه فيقول: "والتشبيه يقبح إذا كان على خلاف ما وصفناه...من إخراج الظاهر فيه إلى الخافي، والمكشوف إلى المستور، والكبير إلى الصغير كما قال النابغة :

تـــخدي بهـــم أدمُ رحالهـــا علقٌ أريـــق على مـــتون صوار"[3]

وعند شرحنا لهذا البيت وهو: لأن الإبل التي في لونها أدمة تسير وكأن رحالها دلو أريق أي أفرغ على القطيع من البقر، فهذا بعيد جدا عن الجودة والتشبيه معا.

"ومن خطأ التشبيه قول النابغة الجعدي:

كأن حجاج مقلتها قليـــــــب من السمقيـــــن أخلق مشتفاهـــا

والحجاج العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب- وليس هذا مما يغور وإنما تغور العين."[4]

---

1 - أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 273.

2 - المصدر نفسه، ص 278.

3 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 280.

4 - المرجع نفسه، ص 281.

وفي النثر ضرب هذا المثال مما يستقبح من التشبيه فقال : " قال محمد بن الجهم:كم آخذ من الدواء الذي جئت به، قال : مقدار بعرة. فجاء بلفظ قذر، ولم يبن عن المراد لأن البعر يختلف في الكبر والصغر ولا يعرف أبعرة ظبي أراد أم بعرة شاة، أم بعرة جمل" [1]

هذا تقريبا زبدة ما قال العسكري في التشبيه في (الصناعتين) فنترك هذا الباب لنعرج على موضوع آخر في البيان وقد اخترنا مادتي(المماثلة، والكناية والتعريض). وقد أوردهما العسكري في باب البديع، إلا أننا نرى أنهما من باب علم البيان.

فتعريفه للمماثلة هو نفس تعريف المتأخرين للكناية، قال: " المماثلة أن يريد المتكلم العبارة في معنى، فيأتي بلفظة تكون لمعنى آخر، إلا أنه ينبئ إذا أورده عن المعنى الذي أراده كقولهم(فلان نقي الثوب)، يريدون لا عيب فيه، وليس موضوع نقاء الثوب البراء من العيوب وإنما استعمل فيه تمثيلا، قال امرؤ القيس:

ثياب بني عوف طـــــاهرة نقية وأوجههم غر المشـــــاهد غران"

وفي الفصل الثاني عشر من البديع من كتاب (الصناعتين) تعرض أبو هلال للكتابة والتعريض، فقال: "هو أن يكنى عن الشيء ويعرض به، ولا يصرح على حسب ما فعلو باللحن و التورية عن الشيء، كما فعل العنبري إذ بعث إلى قومه بصرة شوك وصرة رمل وحنظلة يريد جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير،ككثرة الشوك والرمل...([2]) ومما جاء في كتاب الله تعالى: ﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء**﴾[3]. فالغائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء كناية عن الجماع، وقوله تعالى ﴿**وفرش مرفوعة**﴾[4]. كناية عن النساء.

وقد يحصل اللبس والخلط بين الكناية والتعريض، ومن العلماء من تعـــــرض لهذا القضية. محاولين الفصل بينهما ومن هؤلاء العالم البلاغي ضياء الدين بن الأثير حيث قال: "وقد تكلم علماء البيان فيه، فوجد تهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما... بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر، وأدخلـــوا أحدهما في الأخر، فذكروا للكناية أمثلة من

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ، ص 282.

2 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 379.

3 – سورة النساء الآية 43.

4 – سورة الواقعة الآية 34.

التعريض، وللتعريض أمثلة من الكناية وممن فعل ذلك، الغانمي وبن سنان، الخفاجي والعسكري ...والذي عندي في ذلك أن الكناية إذا وردت تجاذبها جانب حقيقة ومجاز، وجاز حملها على الجانبين معا، ألا ترى أن اللمس في قوله تعالى : ﴿**أو لامستم النساء**﴾ يجوز حمله على الحقيقة والمجاز،وكل يصح به المعنى ولا يختل فللمسن مصافحة الجسد للجسد، والمراد باللمس الجماع، وذلك مجاز فيه، وهو كناية، وكل موضع ترد فيه الكناية فإنه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز، ويجوز حمله على كلاهما معا.[1]

أما التعريض "فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي. فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته بغير طلب: والله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء، وأنا عريان، والبرد قد آذاني، فإن هذا و أشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعا في مقابلة الطلب حقيقة لا مجا زا. [2]

وبعد هذا العرض الخاطف لهذه والتعاريف والأمثلة، نبين الفرق بين الكناية والتعريض في هذه النقاط الثلاثة :

- تقع الكناية مفردة كقوله تعالى: ﴿**إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنها وعزني في الخطاب**﴾[3] فقد كنى بالنعجة عن المرأة، وقد تكون الكناية في التركيب اللفظي(جملة)، عكس التعريض الذي لا وجود له في باب اللفظ المفرد.
- الكناية معدودة من المجاز، عكس التعريض، لا يعد من المجاز في شيء.
- التعريض أخفى من الكناية فالكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز، عكس التعريض فإن دلالته من جهة القرينة، و الإشارة كما سبق و مثلنا.

2- علم المعاني:

عالج أبو هلال من موضوعات علم المعاني باب الإيجاز والإطناب والمساواة معالجة مستفيضة، ولم يضف ممن جاءوا بعده عن دراسته شيئا يذكر.

---

1 - ابن الأثير، المثل السائر، ص 376.

2 - المصدر نفسه، ص 380.

3 - سورة ...، الآية رقم : ...

يرى أبو هلال أن الإيجاز ينحصر في تقليل الألفاظ وتكثير المعاني، فيقول: "قال بعضهم الزيادة في الحد نقصان... وقال شبيب بن شبة: القليل الكافي خير من كثير غير شاف ... وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول لرجل: كفاك الله ما أهمك. فقال: هذه البلاغة... وقيل للفرزدق ما صـــيرك إلى القصائد القصار بعد الطوال، فقال: لأني رأيتها في الصدور أوقع. وفي المحافل أجول... وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما رأيت بليغا قط إلا وله في القول الإيجاز، و في المعاني الإطالة."[1]

ودائما في نفس السياق قام العسكري بموازنة لطيفة ظريفة بين أسلوبين، أسلوب القرآن في قوله تعالى(ولكم في القصاص حياة). وأسلوب العرب في قولهم: (القتل أنفى للقتل) فيقول العسكري: "ويتبين فضل هذا الكلام إذا قارنتـــــه بما جاء عن العرب في معناه وهو قولهم(القتل أنفى للقتل) فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة، وهو إبانة العدل لذكر القصاص، وذكر الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة، واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به، ولإجازته في العبارة، فإن الذي هو نظير قولهم –القتل أنفى للقتل – إنما هو (القصاص حياة) وهذا أقل حروفا من ذلك، ولبعده من الكلفة بالتكرير وهو قولهم – القتل أنفى القتل –ولفظ القرآن برئ من ذلك، ولحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحس، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الفاء ..."[2] وهذا مما هو داخل في إيجاز القصر.

وقد تعرض العسكري لنوع آخر من الإيجاز هو (إيجاز الحذف) فقسمه إلى أنواع ولعل من أهمها :

1: حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه كقوله تعالى **﴿وسأل القرية التي كنا فيها﴾** أي أهلها. ومثال ذلك قول المتنخل الهذلي :

يُمَشي بيننا حانوت خـــــمر من الحرس الصراصرة القطاط

يعني صاحب الحانوت وقد أقام الحانوت مقامه.

---

1 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 194.

2 – المصدر نفسه، ص 195.

2: وقوع الفعل لشيئين وهو لأحدهما مثل قوله تعالى :**﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾**، معناه ودعوا شركاءكم.

3: أن يجيء الكلام على أن هو جوابا، فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب كقوله تعالى: **﴿ ولولا فضـــل الله عليكم ورحمته، وأن الله رءوف رحيم .﴾** أراد لعبدتم.

4: حذف الكلمة والكلمتين كقوله تعالى: **﴿وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾**[1].

وقوله تعالى **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحسانا﴾**[2].

أي ووصى بالوالدين إحسانا.وقول النمر :

فإن المنية من يخشاهـــــا فسوف تصادفه أينمـــا

أي أينما تذهب.

5: القسم بلا جواب كقول الله تعالى:**﴿ق، والقرآن المجيد، بل عجبوا...﴾**[3] .معناه والله أعلم، ق و القرآن المجيد لتبعثن و الشاهد ما جاء من ذكر البعث.

6: ومن الحذف إضمار غير مذكور كقوله تعالى: **﴿حتى توارت بالحـــجاب﴾**[4]. يعني الشـــمس بدأت في المغيب.

لينتقل بعد ذلك عن الحديث عن نقيض ذلك وهو الإطناب، فقد عالجه مثل صنوه، وقد عرض من أنواع الإطناب الاصطلاحية : التكرار، والإتباع بقصد، والتوكيد وذكر الخاص بعد العام. وقد مثل لذلك بقوله تعالى: **﴿إن الله يأمر بالعدل و الإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء و المنكر والبغي﴾** ([5]). " فالإحسان داخل في العدل وإيتاء ذي القربى داخل في الإحسان، و الفحشاء داخل في المنكر، والبغي داخل في الفحش."[6] وأهل البلاغة المتعصبين للإطناب، يرون " المنطق هو البيان و البيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفا لا

1 - سورة آل عمران الآية 106.

2 - سورة الإسراء الآية 23.

3 - سورة ق الآية 3.

4 - سورة ص الآية 31.

5 - سورة النحل الآية 70.

6 - أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 214.

يكون إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني ...و الإيجاز للخواص، والإطناب مشترك فيه العامة و الخاصة." [1]

فالحقيقة أن كل من الإيجاز و الإطناب يحتاج لهما في جميع الكلام، ولكل واحد منهما مزية، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة للإطناب في مكانه. ويحكي العسكري في هذا السياق: "أمر يحيى بن خالد (البرمكي) اثنين أن يكتبا له كتابا في معنى واحد، فأطال أحدهما و اختصر الآخر، فقال للمختصر: – وقد نظر في كتابه – ما أرى موضع مزيد وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان."[2] ليعود إلى القول في الحد الوسط بينهما، وهو "المساواة " معرفها بأن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني، وهذا توسط بين الإيجاز والإطناب.

ومثال ذلك ما جاء في آي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿**حور مقصورات في الخيام**﴾*[3]. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿**لا تزال أمتي بخير ما لم ترى الأمانة مغنما، والزكاة مغرما**﴾ ولم يستطع أحد من البلاغيين ممن جاءوا بعد العسكري أن يأتـــي بأكثر مما جاء به أبو هلال في المساواة.

يعد أبو هلال أول من فرق بين الإطناب و التطويل، وقد أشار " أن التعبير عن المعنى بكلام طويل لا فائدة في طوله، ويمكن أن يعبر عنه بأقصر منه ومثل ذلك قول النابغة:

تبينت آيات لها فعرفـــــتها لست أعوام وذا العام السابـــــع

كان ينبغي أن يقول لسـبعة أعوام، ويتم البيت بكلام آخر، ويكون فـــيه فائدة، فعجز عن ذلك فحـــشا البيت بما لا وجه له"[4]. وكما سبق وأن أشرنا، فأبو هلال لديه خاصية التوفيق بين المواقف و الأحوال، وبينما يقتضيه كل موقف من إيجاز أو إطناب خاصة في الكتابة. فيفصل في الموافق التي يجب الإيجاز فيها أو الإطناب أو المساواة.

---

1 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 209.

2 – المصدر نفسه، ص 210.

3 – سورة الرحمان الآية 72.

4 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين ص 35.

فالكتابة في الأمر النهي مثلا –في كتب السلاطين – من حقها أن تؤكد بكيفية نظم الكلام لا بكثرة اللفظ .أما " سبيل الإحماد والإذمام والثناء والتقريظ، والذم والاستغفار والعدل والتوبيخ أن يشبع الكلام فيه، يمد القول على حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة، والاجتهاد والتقصير، ليرتاح بذلك قلب المطيع وينبسط أمله، ويرتاع قلبه المسيء، ويأخذ نفسه بالارتداع".[1] ودائما في الإيجاز، يشير إليه في إنهاء الخبر إلى استعمال الكناية والتورية دون الإفصاح، ونصح الشاكر المادح ألا يقع منه إسهابا، وسبيل ما يكتب به التابع إلى المتبوع في المعنى الاستعـــــطاف ألا يكثر من شكاية الحال، فإن ذلك يؤدي إلى التبرم والإضجار، و شكاية الرئيس بسوء حاله وقلة ظهور نعمته علـــيه، وهذا عند الرؤساء مكروه جدا.

لا شك أن ذكر أبي هلال لهذه الملحوظات يدل على عمق ثقافته النفسية، وشخصية رجل، ذا تجربة حياتية، قد مَرسَ الحياة وخالطها وخالط أهلها حتى صار يعرف كيف بصنفهم ويصنف الكلام الموجه لهم وذلك بدقة المحلل النفساني الحاذق .

ثم يتعرض أستاذنا لقضية ربط أجزاء الكلام بعضه ببعض والذي اصطلح عليه (الفضل والوصل) فجاء عرضه لهما بما جاء فيهما عمن سبقوه، ونحن نستطيع الاستخلاص من كلامه المقاييس البلاغية التي أنارت لتابعيه في دراساتهم البلاغية الطريق.

ومما جاء من كلامه عن الوصل و الفضل قوله " قال أكتم بن صيفي لكتّابه إذا كاتبوا ملوك الجاهلية فضلوا بين مقتفى كل معنى، وصلوا إذا كان الكلام معجونا وبعض ببعض"[2] إذا فالفصل بين نهايات المعاني (أي عند نهاية كل معنى).

"قيل للفارسي ما البلاغة؟ قال : معرفة الوصل من الفصل ...وقال أبو العباس السفاح لكاتبه قف عند مقاطع الكلام وحدوده، وإياك أن تخلط المرعى بالهمل، ومن حلية البلاغة، المعرفة المواضيع الفصل والوصل..."[3]. ثم ينصح من ينظم شعرا أو يكتب نثرا بالفصل بين الهجاء

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص 213.

2 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 425.

3 – المصدر نفسه، ص 427.

والمديح، وعند استئناف القول. وفعلا هذا ما اعتمده البلاغيون من بعده من مقاييس في جل ما تطرق إليه العسكري.

3- علم البد يع :

صاحب السبق في التأليف كما سبق وأثرنا هو عبد الله بن المعتز في كتابه (البديع) جامعا فيه ما وقع من ضروب تحسين الكلام في الكتاب الله وحديث رسوله . وكلام بلغاء العرب، وقد أفاض في التمثيل . أما العسكري المُولع بالتقسيم والقول في الحدود هو الذي أوضح علم البديع، وحدد معالم، كل نوع منه ومعرفا كل ضرب منه.

" فابن المعتز جعل البديع خمسة أقسام هي :الاستعارة، التجنيس، المطابقة، المذهب الكلامي. ورد إعجاز الكلام على ما تقدمهما. محددا بعضها تحديدا غير كافي واقتصر في البعض الآخر على المعنى اللغوي ولم يزد شيئا وفي الباقي اقتصر على التمثيل."[1]

لقد كان قدامه بن جعفر معاصرا لعبد الله بن المعتز فجمع في كتابه (نقد الشعر) طائفة من المحسنات البديعية، لكنه لم يذكرها على أنها بديع ولم يذكر حتى اسم البديع، بل ذكرها على أنما نعوت للشعر، ومحاسن له " منها ما هو نعت للوزن كالترصيع، ومنها ما هو نعت للقوافي كالتصريع. وما يتصل بالمعاني كالغلو، والتشبيه، وصحة القسم، وصحة التفسير، وصحة المقابلة ..." [2]

وجاء أبو هلال فاقتبس كعادته من كلام ابن المعتز وجعله مقدمة لهذه الفنون .فقد جمع أبو هلال في الباب التاسع من كتابه (الصناعتين) محسنات البديع، فجعلها خمسة وثلاثين محسنا،عقد لكل نوع منها فصلا خاصا.

وبالنظر في أنواع البديع عند أبي هلال، ومقارنتها بما جاء به كل من ابن المعتز وقدامة من أنواع البديع تتجلى لنا الحقائق التالية:

1: جارى أبو هلال ابن المعتز في اعتبار الاستعارة والكناية من أنواع البديع مع أنهما في الواقع من فنون البيان.

---

1 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية،ص 216.

2 - المرجع نفسه، ص 217.

2: كذلك جارى صاحبيه في اعتبار (الاعتراض) نوعا بديعا كما اعتبر هو نفسه (التذييل) نوعا بديعا آخر، مع أن الاعتراض والتذييل، أسلوبان من علم المعاني.

3: اتفق مع صاحبـــــيه في أربعة أنواع بديعية هي: الطباق، المبالغة، رد الأعجاز على الصدور، والإلتفات.

4: أخذ عن ابن المعتز وحده الجناس، الرجوع، تجاهل العارف، المذهب الكلامي، حسن الابتداءات، تأليف المدح .بما يشبه الذم والذي سماه هو (الاستثناء).

5: أخذ عن قدامة وحده تسعة أنواع هي: صحته المقابلة وصحة التقسيم، صحته التفسير، الإشارة، الإرداف، التمـــــــــثيل، الغلو،الترصيع والإيغال.

6: اهتدى أبو هلال نفسه إلى ستة أنواع بديعية وقد حدد هذه الأنواع التي اكتشفها وعرَّفنا بها في كتابه بقوله: "زدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع:التشطير والمجاورة، والتطريز، و المضاعف و الاستشهاد، و التلطف".[1]

7: وأخيرا " أورد ثمانية أنواع بديعية لم يرد لها ذكر عند قدامة أو ابن المعتز و هي التوشيح، والعكس والتبديل والتكميل والاستطراد وجمع المؤلف والمختلف وسلب والإيجاب والتعطف و الاشتقاق "[2]

و قد ارتأينا أن نتعرض بشيء من الشرح لما جاء به من جديد في المحسنات البديعية والتي لم يسبقه إليها غيره:

1: التشطير :

"وهو أن يتوازن المصراعان و الجزآن، و تتعادل أقسامهما مع قيام كل منهما بنفسه، و استغنائه عن صاحبه، فمثاله من النثر قول بعضهم (من عتب على الزمان طالت معتبته، و من رضي عن الزمان طالت معيشته)... و قول آخر(رأس المداراة ترك المماراة)، فالجزآن من هذه الفصول متوازنا الألفاظ و الأبنية.([3])

---

1 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين ص 267.

2 – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 21.

3 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 463.

و من شعراء المتحدثين، قول البحتري:

شوقي إليك تفيض منه الأدمع و جودي إليك تضيق عنه الأضلع ."

فعند تفكيك البيت إلى و حدات صغرى (كلمات) نجد توازنا مطلقا:

شوقـــــي =جودي، إليك=إليك، تفيض =تضيق، منه=عنه، الأدمع=الأضلع،

اسم جار ومجرور فـــعل جار ومجرور اســـم

2: المجـــاورة:

عرفها أبو هلال بأنهـــا: "تردد لفـــــظتين في البيت ووقوع كل واحدة منهما بجنب الأخرى أو قريبا منها من غير أن تكون احداهما لغوا لا يحتاج إليها و ذلك كقول علقمة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطـــعمة أنـــى توجـــه الـــمحروم محروم

فقوله: الغنم يوم الغنم – مجاورة – و المحروم محروم مثله.

و قول اوس بن صخر :

كـــأنها ذو و تـــوم بين مأفقة فاقـــطقـــطانة و المذعور مذعور."

وقد مثل أبو هلال لهذا المحسن البديعي الذي ابتكره من المنظوم –وفكر–وحده دون المنثور أقصد الكلام صلحا.([1])

3: التطريز:

وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن "وهذا النوع قليل في الشعر وأحسن ما جاء فيه قول أحمد بن ابن طاهر:

إذا أبو قاســـم حادت لـــنا يـــده لم يحمد الأجودان البحر و المطر

فإن أضاءت لنا أنـــوار غرتـــه تضاءل الأنـــوار الشمس والقمـــر

وإن مـــضى رأيه أو حد عزمته تأخر الماضـــيان السيف والقدر

من لم يكن حذرا من حد صولته لم يدر ما المزعجان الخوف والحذر

1 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 466.

فالتطريز في قوله : (الأجودان، الأنوران، الماضيان، المزعجان)."[1]

ومن التطريز أيضا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿**يكبر ابن آدم ويشب معه خصـــلتان :الحرص، وطول الأمل** ﴾ وقوله أيضا : ﴿**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق**﴾... والطراز في مصطلح علماء البيان مقول على ما يكون في صدر الكلام والشعر، مشتملا على ثلاثة أسماء مختلفة المعاني، ثم يُؤتى بالعجز، فتكرر فيه الثلاثـــــــة بلفظ واحد .ومن أمثلته ما قال بعضهم :

وتسقيني و تشرب من رحيــق خـــليق أن يلــقب بالخــلوق

كأن الكأس في يدها و فـــــيها عــقــيــق في عقيق في عقيق

وأراد بالثلاثة: يدها، الكأس، الخمر ... فكرر لفظ (العقيق) إشارة إلى ما ذكرنا. "[2]

4: الاستشهاد و الاحتجاج :

وهذا الجنس كثير لدى القدماء و المحدثين و هو أحسن ما يتعاطى من أجـــناس صنعة الشعراء، و هو أن تأتي بمعني و تأكده بمعني آخر يجري مجرى الاستشهاد، و الحجة على صحته – الكلام الأول – و مثال ذلك: "من النثر ما كتبه به كافي الكفات في فصل له فلا تفسر آخر أمرك بأوله، ولا تجمع من صدره وعجزه، ولا تحمل خوافي صنعك على قوادمه فلا إناء يملأ القطر فيفعم، والصغير يقترن بالصغير فيعظم..." [3]

" قال أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحـــــب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منـــــــزل"

فقد غير أبو هلال العسكري التذييل بالاستشهاد هو الآخر إلى جانب الأدباء وعلماء البلاغة، فله في الكلام موقع جليل، ومكان شريف، لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 480.

2 – العلوي، الطراز، ص 92.

3 – أبو هلال العسكري ، الصناعتين ص 470.

اتضاحا([1])، الفرق بينهما أن التذييل الذي يعنيه العسكري هو المتصل معناه بمعنى ما سبق له الكلام والاستشهاد عنده هو ما سبق وأن أشرنا إليه.

5: المضـــاعـــفة:

هي أن يتضمن الكلام معنيين: معنى مصرحا به ومعنى كالمشار إليه. وذلك مثال قوله تعالى: ﴿**منهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون**﴾[2] فالمعنى المصرح في هذا الكلام أنه لا يقدر أن يهدي من عمي عن الآيات و صَمَّ عن الكلم البنات... بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها... والمعنى المشار إليه أنه فضل السمع على البصر لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل ومع العمى فقدان النظر. ومن المنظوم قول الأخطل:

قوم إذا استنبح الأضياف كلـــبهم قالوا لامـــهم بولي على النـــار

فأخبر عن إطفاء النار، فدل عن بخلهم وأشار إلى مهانة أمهم عندهم، وكتب بعضهم...فإن رأيت صلتي بكتابك العادل عندي رؤية كل حبيب سواك، وتضمينه من حوائجك ما أسر بقضائه فعلت إنشاء الله...فقوله سواك مضاعفة"[3]

6: التلطـــف :

" وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه، والمعنى الهجين حتى تحسنه –ومن أمثلة ذلك –كقول الحسن – رضي الله عنه– عندما رأى على رجل طيلسان صوف، فقال : "أيعجبك طيلسانك هذا. قال نعم. قال إنه كان على شاة قبلك. فهجنه من وجه قريب".

ومن أمثلة ذلك أيضا: أن خالد بن يحيى البرمكي قال لعبد الملك بن صالح :أنت حقود..فقال: إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر، فإنهما عندي لباقيان، فقال يحيى :ما رأيت أحدا أقبح للحقد حتى حسنه غيرك. ومن المنظوم قول كانوا يلقبون بأنف الناقة فيأنفون فقال فيهم:

قوم هـــــم الأنف و الأذناب غيرهم فمن يـــسوي أنف الناقة بالذنـــب

---

1 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 223.

2 – سورة يونس الآية 43.

3 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 478.

فكانوا بعد ذلك يتبجحون بهذا البيت."[1]

ونحن نعتقد أن (أسلوب التلطيف) قريب من أسلوب المناظرة المعروف، وفيها يتصدى المتناظران لرأي يؤيده أحدهما ويفنده غيره بأدلة خطابية، وأن كان غير مقتنع بصحة ما يقول ولكن غايته لإبراز المقدرة الكلامية، الموهبة البيانية وهذا أسلوب اشتهر به جماعة السفسطائيين.

لنصل إلى حقيقة الفصل في كل ما جاء فيه من نظرية الكلام بلاغة في كتاب الصناعتين. إلى أن أبا هلال العسكري بكتابه قد وضع اللبنة الأولى في بناء النظرية البلاغية فقد ضم كثيرا من معارف سابقيه، وأضاف إليها كثيرا من جهوده كان لها تأثير كبير على من لحقه. كما يعلن بدوره عن حركية لمرحلة جديدة في جمع المادة البلاغية وجعلها في مصنف واحد يقوم على منهجية واضحة ما أنتج ترتيبا محكما وتنظيما جيدا.

وصولا إلى طرح الإشكال التالي : كيف تجسد فعليا –هذا الشتات الفكري– لسابقيه ومعاصريه في أمهات الكتب المصنفة وغير المصنفة في تحديد الإطار العام للعسكري في تجسيد مصادر نظرية علم الكلام في بلاغته ؟

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 483.

الفصل الرابع

مصادر نظرية علم الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري

- القرآن الكريم
- النقاد وعلماء عصره وسابقيه
- التراث الأدبي شعرا ونثرا

مصادر نظرية علم الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري:

1- القرآن الكريم :

في عصر العسكري ظهر خلافا حول كلام الله، هـــل هو الحروف المقطعة، أم هو المعاني النفسية حسب تصوره الفريقين (المعتزلة والأشاعرة). فقد قال الخوارج و المعتزل وأكثر الشيعة الزيدية والمرجئة وكثير من الرافضة أن القرآن كلام الله وإنه مخلـوق الله، لم يكن ثم كان، وقد قال الحنابلة كلامه حرف وصوت يقومان بذاته وهو قديم .

وظهرت قضية ثانية في العصر نفسه وهي "قضية الصرفة" أي هل العرب أعـجزهم الله على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أم صرفهـم عن الإتيـان بمثلـه. فنظرا لاحتدام الجدال والنقاش في القرآن، حاول العلماء أبداء آراءهـم في كتـاباتهم، فكان شيخنا العسكري ممن خاضوا هذه التجربة فألف كتابه (الصناعتين) وقد كانت غـايته إثبات إعجاز القرآن وفهم أسرار الجمال ومناحي التفوق التي تفرد بما كتاب الله تعالى.

لـقد كان لهذه الخلافات الكلامية -حول القرآن- كبير الأثر في صقل شخصية أبو هلال التنظيرية - إن صحّ القول - فكان للرد على من خالفوا الجماعة - جماعة المسلمين - في اعتقادها، توسيع لثقافة العسكري القرآنيـة، ولا يفتأ يذكر الاستشهاد تلو الآخـر من آيات القرآن الكريم .يقول أبـي هلال في مقدمته كتاب (الصناعتين) "اعلم علمك الله الخير ودلك عليه وقيضـه لك وجعلك من أهله أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحـفظ :بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علـم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعـجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق والهـادي إلى سبيل الرشد المدلول به على صدق الرسالة، وصـحة النبوة التي رفعت أعـلام الحق، وأقامت منار الدين، وأزالت شُبَهَ الكفر ببراهـينها وهتكت حجب الشك بيقينتـها "[1].

ثم يواصل الكـلام عن علاقة البلاغة والفصاحة بالإعجاز القرآني - الذي من أجله ألـف هذا الكتاب - فيقول " وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخـل بـمعرفة

[1] - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 9.

الفصاحة، ولم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وجعله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، و عذوبتها وسلاستها... إنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايتهم في حسنه وبراعته وسلاسته ونصاعته،وكمال معانيه وصفاء ألفاظه..."([1]).

2. النقاد و علماء عصره و سابقيه :

لقد سبق وأن أشرنا أنا أبا هلال كان له جهدا يمكن أن يوصف بالتكميلي لما بحث فيه من جاءوا قبله. وقد سبق و نوهنا بدور سابقيه في رسم معالم ثقافته وتفكيره وشخصيته الباحثة. ولعل معرفة أساتذة العسكري من أهم ما يعني الباحث، لأن معرفتهم والوقوف على ثقافتهم و آثارهم، و جهودهم العلمية، كل ذلك له أثره في الوقوف على منابع ثقافته و تكوين عقله و تنظيم تفكيره .

"لقد أرجع العلماء ثلاثة أرباع فكر الرجل إلى أولئك الذين جلس منهم مجلس التلميذ من العلم، و إلى ما وفق عليه من علم سابقيه، وتجربتهم و جعلوا الربع وحده لمواهبه الخاصة و ملكاته و عقله و لبه."[(2)] ويمكن إحصاء نوعين من الأساتذة لأبي هلال:

النوع الأول :

أساتذة من اللون المعروف بشيوخ جلس بين أيديهم و تلقى عنهم وأول أولئك علم من أعلام (عسكر مكرم) و هو حسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري المكنى بأبي أحمد – و قد سبق و أشرنا إلى هذا في الفصل الأول من بحثنا هذا، وتأكيدا لما سبق و ذكرنا فقد صرح المؤرخون لِسيَر الرجل وهذا ياقوت ينقلها في ترجمته لأبي هلال " عن أبي طاهر السلفي يقول، و كان لأبي أحمد تلميذ وافق اسمه اسمه، واسم أبيه اسم أبيه، و هو عسكري أيضا، فربما اشتبه ذكره بذكره".[(3)]

---

1 – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 10

2 – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص 25.

3 – ياقوت الحموي، معجم الأدباء،ج 8 ،ص 258.

وأورد القطفي أيضا -في كتابه "أنباه الرواة في ترجمة أبي أحمد" : "أن لأبي أحمد من الأتباع علماء أعلاما كأبي هلال العسكـــري و أمثـــاله."[1]

وقد سجل أبو هلال نفسه في مؤلفاته خاصة كتاب (الصناعتين) ذكر أستاذه بقوله: حدثـــني أبو أحمد .. أخبرني أبو أحمد ..أنشـــدني أبو أحمد..روى أبو أحمد إلى غير ذلك من العبارات التي تدل على نهـــله من هذا المعين-علم أبـــي أحمـــد- وقد انتشر ذلك كثيرا في مؤلفاته. ومن أساتذته أيضا عم أبيه "أبو سعيد الحـــسن بن سعيد" الذي كان أحـــد أعـــلام عصره وشيوخه...ويبـــدو أن والده أيضا كان شيخا من شـــيوخ العلم، أورثه حبه، وتعلق برجاله، وإن كنا لا نجد خبرا صريحا في كتبه، أو رواياته يدل على تلمذة أو أخذ صـــريح. وإنما وجدنا في بعض ما كتب يدل على شـــيء من الإفـــادة كقوله: "وجدت بخط أبي رحمه الله: قال القناني : القداحة بقية تبقى في القدر من المرق، وفي الذكرة من الشرب...: ولعل هذا ما يدل على أنه لم يدرك أباه...[2]

النوع الثاني:

أما النوع الآخر من أساتذة أبي هلال منهم ممن سبقوه من العلماء والأدباء والنقاد الذين تتلمذ على آثارهم وأخذ عنهم أجود ما فيها – أقصد المؤلـــفات-. وقد سبق و تحدثنا بتفصيل عن سابقيه في البلاغة و النقد.

وما مـــن شك أن أثر هؤلاء في نظرية علم الكلام في بلاغة العسكري كبير، إلا أن هناك أشياء أخرى كان لهما كبـــير الأثر و هي وفـــرة النص الأدبي بـــدءا من القرآن الكريم إلى الحديث الشريف إلى الشعر والنثر، دون نسيان موهـــبته واستـــعداده الفطري للبحث والتحصيل العلمي، فكان من القلائل والذين مـــنحو قدرة بارعة على الإطلاع وصبرا على الدرس والتحصيل فطالع -بالمفهوم الحديث- الآثار فانتفع بقراءتـــها.

فإذا كان العلم ينـــقسم إلى فرعين :علم رواية – المأثور- وعلم دراية -الاستعداد الفطري- فقد أجاد العسكري في النوعين ودليلنا على ذلك أن كتابه "ديوان المعاني " شاهد على فطرته السليمة، وكتابه (الصناعتين) وشاهد على حافظته الكبيرة.

---

[1] – ابن القطفي، أنباه الرواة في انباه النحاة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1950، ج.1 ، ص 311.

[2] – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص26.

كما أشـــرنا في الفصل الأول من هذا البحث أن جهود من سبـــقوه كان لهم الفضـــل الوافر في صقل شخصيته العلمية، ومن أولئك السابقين في دراســـة الأدب ونقده ذكرنـــا ابن سلام وكتابه (طبقات الشعراء) والجاحظ وكتابه (البيان والتبيين) وابن قتيبة وكـــتـــابه (الشعر والشعراء) و ابن المعتز وكتابه (البديـــع) و"ابن طباطبا وكتابه (عيار الشعر) وقدامة بن جعفر وكتابه (نقـــد الشعر) و الآمدي وكتـــابه (الموازنـــة بين الطائيين) والقاضـــي الجرجاني وكتابه (الوساطة بين المتنبي و خصومه). وهذه أهم الكتب المتصلة بالأدب شعره ونثره.

لقد استطاع العسكري وباحتراف أن يمخض هذه التصانيف ويستخلص زبدتـــها في كتبه خاصة في كتاب (الصناعتين) والذي يعتبر جامعاً لأفكار هؤلاء مع اختلاف مذاهبـــهم، وتبايـــن مذاهبهم في البحث. حتى أن القارئ والدارس والباحث يستطيعون اللإكتفاء بكتابه (الصناعتين) عن هذه الكتب مجتمعه لأنه بمثابة خلاصة التجارب في دراسته المنـــظوم من الكلام والمنثور منه، و المصدر لعلم التنظير الكلامي لـــبلاغة أبي هلال .

لقد ركز العسكري على كتاب الجاحظ (البيان والتبيين)، فالباب الذي عقده العسكري في "القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة"[1] أخذ أكثر هذه الحـــدود مما أورده الجاحظ في تعريف البلاغة ثم شرح هذه الحدود في إسهـــاب و مثل لهـــا، ذكر ما قد يكون لديه من مآخذ علـــيها أو غموض فيها .فإن كان الجاحظ قد استـــبشع حوشـــي الألفاظ و غريبها... فإن العسكري يتتبعه في هذا الرأي بل ينقل العبارة الجاحظ بنصها "رأيتـــهم يديرون في كتبهم هذا الكلام، فإن كانـــوا إنما رووه، ودونـــوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة، فقد باعده الله عن صفة الفصاحة و البلاغة"[2] وعلى هذا فإن الجاحظ وبيانه يعد من أول الموارد التي وردها العسكري ونهل منها.

قبل عصر أبي هلال بقليل انتشرت تحليلة فـــنون الأدب بصنوف البديع وتعلق بـــها الشعراء والكتاب وغالوا بها، وأصبحت فنون البديع مقياس في الحكم بالاجادة والإبداع، فهـــال هذا عبد الله ابن المعتز فألف كتابه(البديـــع) وقـــد كان من الطبيعي أن يعنى أبو

---

[1] – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 23.

[2] – المصدر نفسه، ص 32.

هلال وهو المؤلِفُ في –الكتابة والشعر– بالبديع ومحسناته، فقد أفرد له نصف كتابه تقريبا. ورأى أن إمامه في ذالك ابن المعتز، فقد أخذ عنه الألقاب، وما أتي به من الأقسام والحدود ينقل عنه أكثر أمثلته، ويزيد فيها ما استطاع واخترع ما قد فصلناه في الفصل الثاني فيكون ابن المعتز أحد المنابع التي استقى منها العسكري بلاغته.

ثم تحتك الثقافة العربية بوافد جديد هو الفلسفة اليونانية المنقولة إلى العرب وكان هذا عاملا ذا أثر كبير في نقد الأدب متجها وجهة جديدة فقامت بذلك مقاييس جديدة – علمية – قامت عليها صناعة النقد الأدبي .فقد ترجم إلى العربية كتاب أرسطو (الخطابة والشعر) وفيها قواعد للتأليف والنقد لا عهد للعرب بها فحاول الأخذ من هذا المنهج الجديد وتطبيقه على شعرهم و نثرهم، ومن النقاد العرب الذين تأثروا بهذا الاتجاه قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) متأثرا بأراء أرسطو إلى حد كبير.

وعلى الرغم من تصريح أبو هلال أنه لن يذهب في كتابه (الصناعتين) مذهب المتكلمين ولكن نظرة مركزة على كتاب (الصناعتين) تؤكد أن (نقد الشعر) من أهم مصادر هذا الكتاب . ونحن نرجح أن أبا هلال ألف كتابه (الصناعتين) تكميلا لكتاب (نقد الشعر) لأن قدامة ألف في أحدى الناحيتين –الشعر دون النثر–.وكتاب (الصناعتين) حافل بما أخذه العسكري عن قدامة، ونضع الآن بعض الأمثلة التوضيحية :

– يقول قدامة: "فإن كانت فضائل الناس عند قدامة من حيث إنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوانات ... إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة وكان القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطأ."[1]... وأبو هلال يسير في نفس الخط، بل يدعي هذا الرأي لنفسه فيقول: "ويبعد من عيوب المديح أن يعدل المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة."[2]

ومن منابع نظريته في "علم الكلام بلاغة " نجد أيضا كتاب "الشعر والشعراء" لصاحبه ابن قتيبة .من دليلنا على متابعته إياه، أن ابن قتيبة في باب أقسام الشعر الذي قدم به

[1] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 59.

[2] – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص95.

لكتابه (الشعر الشعراء) مثل للضرب الذي حسن لفظه وحـــلا، " فإذا أنت فتشت لم تجد هناك فائدة للمعنى بقول القائـــل :

ولما قضينا من منى كل حـاجة ومسَّح بالأركان من هو ماسـحُ

وشُدَّت على حدب المطايا حـاليا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح .

أخذنا بأطـــراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق والمطي والأباطح.

وعلق عليهـا بقوله: "وهذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطـع وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته :ولما قضـينا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعلينا إبلنا الأنضال، ومضى الناس لا ينظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث، وسارت المطـي في الأباطح، وهذا الصنف من الشعر كثير."[1]

فيأخذ أبو هلال الفكرة يعنيها والرأي بنفسه، ويكاد يأخذ الشرح بكل ألفاظـه فيقول :"إن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا، وسلسا سهلا، ومعناه وسـطا دخل في جملة الجيـد. وجرى مع الرائع النادر، كقوله "ولما قضينا ... الأبيات " وليس تحت هذه الألفاظ كبيرة معنى، وهي رائعة معجبة، وإنما هي :ولما قضينا الحجم، ومسحنا الأركان، وشـدت رحالنا على مها زيل الإبل، ولم ينتظر بعضـنا بعضا جعلنا نتحدث وتسـير بنا الإبل في بـطون الأودية."[2]

ومن أساتذته الذين أعجب بهم وأخذ عنهم بل نَقَـــل حتى آراءهم في مؤلفاته "حسن بن بشر الآمدي (صاحب الموازنة)، أنظر إلى قول العسكري في التنبيه على خطأ المعاني وتدبره جيدا: ومن الغلط قول أبي تمام :

رَقِيقٌ حواشي الحِلْمِ لو أن حلمه بكـــفَيْكَ ما مَارَيْتَ في أنه برد

ولا وَصَفَ أحداً من أهلا الجاهلية، ولا أهل الإسلام الحلم بالرقة، وإنما يصفونه بالرجـــحان و الرزانة كما قال النابغة :

أعـــظم أحـــلاما، أكبر سيـــدا وأفضـــل مشفوعا إلـــيه وشافعا

وإذا ذموا الرجل قالـــوا:خف حلمه و طـــاش، كما قال عـــياض بن الضبي :

---

[1] – ابن قتيبة ، الشعر و الشعراء، ص 11.

[2] – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص 81.

ثَـنَايِلةٌ سُـودٌ خِفَافٌ حُلُومُهُـمْ وذو نَيْرَبٍ في الحي يغدو ويطرقُ

والذي يسترعي الانتباه، ويستوقف النظر، أن هذا الكلام من الحكم على بيت أبي تمام، ومن سـرد أبيات الشـواهد على خطته في معنى البيت مأخوذ بأسرهما مما كتب الآمدي في كتاب (الموازنة)، مع فرق واحد هو أن الآمدي كان أمينـا في النقل، ونـسـبة الحـكم إلى صاحبه، وفي أنه وجد الحكم ولم يجد العلة الموجـبة له، فالـتمسها بنفسه واهـتدى إليها بذوقه وطول ممارسته، وهذه عبارة الآمدي لتـعلم ما بين الرجلين من حرص على الأمانة العلمية أولا، والحكم السديد ثانيا"[1]

وفي الباب الذي عقده – في كتاب (الصناعتين) دائما – أبو هـلال .لبيان حسن النظم وجودة الرصف والسبك قال: "فمن سوء النظم المعاظلة. وقد مدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهيرا لمجانبتها ..فقال :فكان لا يعظل بين الكلام...وأصل هذه الكلمة من قولهم... تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى وعاطل الرجل المرأة إذا ركـبها فمن المعاظة قول الفرزدق :

تعال فإن عاهدتني لا تخونـني تكن مثـل من يَا ذِئْبُ يصطحبان

وقال قدامة :لا أعرف المخاطبة إلا فاحـش الاستعارة .. مثل قول أوس :

وذات هـدم عـار نواشـرها تصـمت بالماء تولـبـا جـدعا

فسمي تولبا والتولب ولـد الحمار. وقال آخر :

و مارقد الولدان حتى رأيـته عـلى البكر يمريـه بساق وحافر

فسمي قدم الإنسان حافـرا ... وهذا غلـط من قدامة كبيـر لأن المعاظلـة في أصل الكلام إنما هي ركوب الشيء بعضه بعضا، وسمي الكلام به إذا لم ينضد نضـدا مستويا وأركـب بعـ ألفاظه رقاب بعض، وتداخلت أجزاؤه، تشبيها بتعاظل الكلاب والجراد، وتسميه القـدم بالحافر ليست بمداخلة كلام في كلام، وإنما هو بعد في الاستعارة ."[2]

---

[1] – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص 83.

[2] – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 181.

فالعبارة الأولى _وأصل الكلمة في قولهم تعاظلت الجرادتان_ مأخوذة من قول قدامة نفسه "وسألت أحمد بن يحي عن المعاظلة، فقال: مداخلة الشيء في الشيء يقال: تعاظلت الجرادتان : وعاظل الرجل المرأة إذا ركب أحدهما على الآخر"[1].

من الواضح أن هذه التخطئة أخذها أبو هلال عن الآمدي من كتابه الموازنة فقد أورد الآمدي عبارة عمر بن الخطاب في مدح زهير وفسر المعاظلة كما بيّنا في (الصناعتين) إلا أن قدامة عند تمثيله على المعاظلة غلط غلطا كبيرا، ولم يكن العسكري ليخطئ قدامة – وهو أستاذه والمعجب بآرائه والمتبع لتنظيماته وأسسه النقدية والبلاغية – إلا مجاراة للعلماء والنقاد الذين هاجموا قدامة وقد أفاد أيضا العسكري من القاضي الجرجاني صاحب كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) مثله مثل سائر من سبقه النقاد و البلاغيين " ومن أمثلة ذلك أن القاضي الجرجاني نقد في الوساطة بيت أبي تمام في وصف الخمر:

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهرا الأشياء

يقول : فخبرني هل تعرف شعرا أحوج إلى تفسير بقراط، وتأويل أرسطو منه ؟"[2]

وقال العسكري: "وأما ما يستبهم فلا يعرف معناه إلا بالتوهم... مثل قول أبي تمام :(جهمية الأوصاف ...)، فوجه الاشتراك في هذا، أن لهم مذاهب كثيرة، وآراء مختلفة متشعبة لم يدل فحوى كلام أبي تمام على شيء منها يصلح أن يشبه به الخمر، وينسب إليه ..إلا أن يتوهم المتوهم فيقول إنما أراد كذا وكذا من مذاهب جهم، من غير أن يدل الكلام منه على شيء بعينه ولا يعرف معنى قوله "قد لقبوها جوهر الأشياء إلا بالتوهم أيضا"[3].

لقد وجدنا موضعا آخر لتأثر العسكري بالقاضي الجرجاني وهو قول العسكري في صفة الألفاظ " لا ينبغي أن يكون لفظك وحشيا بدويا، وكذلك لا يصلح أن يكون مبتذلا

---

[1] – القاضي الجرجاني، الوساطة، ص 16.

[2] – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 45.

[3] – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص 88.

ســـوقيا ...والمختار من الكلام ما كان سهلا جزلا، لا يشوبه شيء من كلام العامة والألفاظ الحشوية ولم يخالف فيه وجه الاستعمال، ألا ترى في قـــول المتنبـــي:

أين البطاريق والحلف الذي حلفوا بمفرق الملك والزّعم الذي زعموا

هذا قبيح جدا، وإنما سمع قول العامة (حلف برأســـه)، فأراد أن يقـــول مثـــله، فلم يســـتو له، فقـــال "بفرق الملك" ولو جاز هذا جاز أن يقول حلف بيافوخ أبـــــيه وبقمحدؤة سيده، وقـــبح هذا يدل على أن أمثاله غير جائزة في جميع المواضع، وهذا الـــنـــوع من شعر المتنبي كبعد الاستعارة في شعر أبي تمام، وهذا القول مأخوذ من قول الجرجاني في الوساطة : "ومتى سمعتني أختار للمحدث هذا الاختيار، وأبعثه على التطبع، وأحسن له التسهيل، فلا تضن أنني أريد بالسمح السهل، الضعيف، الركيك، ولا باللطيف الرشـــيق الخنث، المؤنث، بل أريد النمط الأوسط، ما ارتفع عن الـــساقط السوقي، وانحط عن البدوي، وما جاوز سفسفة (نصر) ونظرائه، ولم يبلغ تعجرف "همیان بن قحافة " وأضرابه"[1].

3. التراث الأدبي شعرا ونثرا :

إن القارئ المتصفح لكتاب (الصناعتين) يجد معظمه جمعٌ لمادة أدبية من التراث ســـواء المنظوم منه أوالمنثور، ثم يقوم بتحليلها تارة ويستشهد بهـــا تارة أخرى، واضعا إياها في الميزان المـــــقبول مرة في الميزان المذمـــوم مرة أخرى وهكذا دواليـــك .

ففي الشعر مثلا، استشهد بأشعار الفحول من الجاهلية وصدر الإسلام والعصر العباسي حتى زمانه. من شعراء العصر الجاهلي مثلا جمع في كتابه (الصناعتين) معظم إن لم نقل كل الأســـماء ففي الفصل الأول مثلا من الباب التاسع والمعنون بـــ(في الاستعارة والمجاز) فقد استشهد بقول امرئ القيس :

فبات عليه سرجه ولجامـــــه وبات بعيني قائما غير مرسل

وقول المهلهل :

تلقى فوارس تغلب ابنة وائل يُستَطْعِمُونَ الموت كلّ هُمَـــام

[1] – أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص 9.

وقول زهير :

إذا لقحت حربٌ عوانٌ مُضرّةٌ ضروس تهرُّ الناس أنيابها عُطّلُ

وقول عنترة :

جادت عليه كل بكر حـــرة فتركن كل قَرَارَةٍ كالـــدرهم

وقول النابغة :

وصدر أراح الليل عازب همِّه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وقول الحارث بن حلزة :

حتى إذا النفع الضـــباء بأطـــراف الظلال وقلن في الـكـنس

وقول عمر بن كلثوم:

ألا ابلغ النعمان عني رسـالة فمـــجدك حولي ولؤمك قـارح.

وقول أبو ذئيب :

إذا المنية انشبـت أظـفارها ألفيـــت كل تمـيمة لا تنفع .

وقول لبيد:

فبتلك إذ رقص للوامع بالضحى واجتاب أردية السراب إكامـــها

وقول الأعشى :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق مُوَزّرٌ بعمـيم النبت مكتـــهل.

وقول أوس بن حجر :

وإني امرؤٌ أعددت للحرب بعدمـا رئيت لها نابا من الشر أعصلا .

افنلاحـظ أن أبيات هؤلاء الـشعراء جاءت في فصل واحد.وهؤلاء الشـعراء كلهم جاهـليون .وهذا نموذج لعصر معين، ومثل هذا موجود كثيرا في الكتـاب،ولـكـل عصر شعرائه. أما في الكلام المنثور، فاستشهاداته -البلاغية- كثـيـرة ووافـرة ومن أمثلة ذلك ما جاء في الفصل الثاني من الباب التاسـع، المعنون بـ (المطابقة):قـول الحسن بن علي رضي الله عنه :ما رأيت يقينا لا شك فـيه أشبه بشـك لا يقين فيـه من الموت .وقال أبو الـدرداء رضي الله عنه :معروف زماننا منكر زمان قد فات . وقال عـبـد الملك بن مروان: ما حمدت نفسي على محبوب ابتدأته بعجز، ولا لمتها على مكروه

ابـــتدأتـــه بحزم...وقال علي رضي الله عنه: أعظم الذنوب ما صغر عندك...وشـــتم رجل الشعبي فقال-الشعبي- : إن كنت كاذبا غفر الله لك، و إن كنت صادقا غـــفر الله لي...وقال خالد بن صفوان لرجل يصـــف له رجلا: ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانـــية.

وقال معاوية بن أبي سفيان: ليس بين أن يملك المـــلك جميع رعيته، أو يملكه جميعها إلا حزم أو توان...وقال بعضهم سوداء ولُودٌ خير من حسناء عقـــيم...وقال ابن المعتز: طلاق الدنيا مهر الآخـــرة...

ومن هذه الأمثلة التي سقناها نستوضح المنابع التي منها استاق العسكري نظريته في علم الكلام بلاغة، بل استاق منها معظم علومه البلاغـــية، وقد تابع سابقيه ومعاصريه من النقاد والعلماء، ومجاراتهم في أحكامهم ومقاييسهم النقدية والبلاغية، آخذا عنهم تارة آرائهم وتارة أخرى استشهادا تهم .

هذا عرض لجل ما تأثر به أبو هلال في تنظيره لعلم الكلام من النقاد والبلاغيين ولكن ما هي المادة التي احتواها أدبه ونقده وبلاغة .

ونستـــخلص مما ذكرنا قدرة العسكري العجيبة على الجمع من كل نبع، وذلك في كل فصل و باب تقريبا، من قرآ ن وحديث وشعر ونثر. وهذا دليل على أنه صاحب (دراية علمية) استطاع بها النقد والتمحيص والحذف والإضـــافة والتصحيح لسابقيه ووضع الأسس والقواعد لنظرية الكلام في عصره. ونجده عالما صاحب (رواية) وذلك لما جمعه إلينا من أخبار الأولين من أشعارهم ومنثورهم ليدلـــل بها عن مقاييسه العلمية والنقدية والبلاغية في علم الكلام.

الخاتمة

الخاتمة:

لفن القول وصناعة الكلام في مجال الإبداع الأدبي أثر بالغ في شحذ العواطف وتوجيه النفوس، ووسيلة في ذلك كامنة في شكله وصياغته بدءا بوحدته الأولى وهي – الكلمة– تلك الأداة السحرية التي تميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات، وما فتئ الدارسون منذ أقدم العصور يدرسونها ويحللونها من جوانب مختلفة لاكتشاف طاقاتها وأسرارها. وأسفرت تلك الدراسات والتحليلات عن نتائج كثيرة تضمنتها النظريات والقيم البلاغية في مختلف العصور والبيئات.

من هذه النتائج التي تدور حول كلمة مفردة ومركبة مع غيرها، كما تدور حول أكثر الطرائق التعبير ملائمة للمراد، وأشدها تأثيرا في النفس. تألف ما يعرف باسم –الدراسات البلاغية– التي أسهم فيها العديد من البلاغيين بمصنفات أهمها كتابي (الحيوان) و (البيان والتبيين) للجاحظ، (نقد الشعر) لابن المعتز، وكتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للقاضي الجرجاني، والرّماني في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) إلى كتاب (الصناعتين) لأبي هلال العسكري موضوع بحثنا وصولا إلى خاتمة أعمالنا الذي يعد أكثر تخصصا لصاحبه أبي هلال العسكري.

لقد رأينا أن البلاغة لم توجد بشكلها النظري، شكل القواعد والأحكام والحدود والتعريفات، إلا بعد أن وجدت من قبل بشكلها العملي في كلام العرب –شعره ونثره– وأن البلغاء من المتكلمين والبلغاء من المتذوقين كانوا أسبق –من حيث الزمن– من علماء البلاغة الذين استنتجوا فنون البلاغة من كلام أولئك وأحكامهم.

ورأينا كذلك أن البلاغة سارت متطورة عبر تاريخ طويل، منذ كانت صفة للكلام الجيّد و القول المبين، إلى أن أصبحت علما ذا قواعد وأحكام وفروع وأقسام، وأنها لم تنشأ مستقلة عن غيرها من علوم القرآن واللغة والأدب والنقد، وإنما سارت معها وترعرعت في أكنافها، وكانت موضوعا مشتركا بين الدراسات القرآنية واللغوية والأدبية والنقدية إلى أن أصبحت موضوعا تناوله من بحث في إعجاز القرآن وبيان أسرار، ومن بحث في أساليب العربية وطرق آدائها، ومن بحث في البيان العربي وصفاته، ومن بحث في المفاضلة بين طبقات الكلام وتمييز جيده من رديئه. وكانت كل طائفة من أولئك العلماء تتناول البلاغة من

الجانب الذي يعنيها، وبالقدر الذي يحقق غايتها وعلى جهودهم جميعا قامت علـــوم البلاغـــة بفنونها وأنواعها.

على أن البلاغة التي وضعوها لم تصل إلى أيدينا إلا بعد أن علّق بها الكثير من آثار الفلسفة والمنطق. ولذلك لم يعد يفي بحاجتنا اليوم أن نعود إلى كتب البلاغة بوضعها، أو نعيد تأليفها على منهج آخر، وإنما يجب أن نعيد النظر في مفهوم البلاغة، وان نوضح وظيفتهـــا لنجعلها أوسع وأشمل، وتعلمنا كيف نتكلم بلسان مبين وكيف نفهم ما أنشئ في هذه اللغة من بليغ القول ورائع الكلام.

لقد كان هم الذين عنوا بالبلاغة قديما أن يكشفوا عن السر في إعجاز القرآن، ثـــم أن يميزوا جيّد الكلام من رديئه، وأن يفاضلوا بين الأجود والجيد من أساليب القـــول. وكانـــت أساليب القول عندهم مقصورة على الصناعتين –الكتابة والنظم– أو –النثر والشعر– فبحثوا في البلاغة من خلال هذين النوعين من الكلام.

لقد أسفر تعاملي المباشر مع مادة موضوع بحثي عن جملة من النتائج أوجزها فيمـــا يلي:

أولا: يجب أن ننبه على أمر هام نحمده للعسكري، وهو أنه لمّا كانت أساليب علماء المنطق والكلام قد طغت على أفكار القوم وأساليبهم في القرن الرابع الهجري، فقد تنبه أبـــو هـــلال العسكري إلى مخالفة هذه الأساليب بطبيعتها لأساليب البلاغة العربية الأصيلة، فوقـــف فـــي آخر الفصل الأول من الباب الأول ليعلن بصراحة أنه "ليس الغرض في هذا الكتاب ســـلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صنّاع الكلام من الشعراء والكتاب". فقـــد كانـــت البلاغة عنده قائمة على الإكثار من الأمثلة على أن يتذوقها ويتحسس بجمالها.

ثانيا: إن أبا هلال العسكري بكتاب (الصناعتين) قد وضع اللبنة الأولى في بنـــاء النظريـــة البلاغية، فقد ضمّ كتابه كثيرا من معارف سابقيه وأضاف إليها كثيرا من جهوده كـــان لهـــا تأثير كبير على من لحقه. كما يعلن الكتاب عن بدء مرحلة واعية في لـــم المـــادة البلاغيـــة المشتتة في الكتب الأخرى، وجعلها في مصنف واحد يقوم على منهجية واضحة في عرض أبواب وفصول المادة مما أنتج ترتيبا محكما وتنظيما جيدا. وبهذا يكون أبـــو هـــلال معلمـــا شامخا في تاريخ البلاغة العربية، فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم في اللغة العربيـــة،

ولو لم يكن له إلا كتاب (الصناعتين) لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عنى به درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب.

نحن لا نطالب أبا هلال العسكري، بأن يصيب في كل أحكامه، فذلك مطلب عسير وإنما يكفي أن نقول أن كتابه يضع القارئ في حركة فكرية متصلة.

ثالثا: يعتبر كتاب (الصناعتين) لأبي هلال العسكري في نظرنا، أول محاولة لقراءة البلاغيين العرب الرواد قراءة شمولية تستهدف الخروج بصيغة عامة تجمع المبعثرة من أمهات الكتب المتفرقة، ولذلك نجده يحاول الجمع بين روافد مختلفة ومتنوعة ومتباينة بين (بيان) الجاحظ، و(بديع) ابن المعتز فهو إذن يمثل مرحلة انتقالية بين عملية الاستكشاف وكذا عملية البناء. ثم يذكر انه لم يؤلفه على طريقة المتكلمين، وإنما ألّفه على طريقة صنّاع الكلام من الشعراء والكتاب، وهو كذلك فقد مضى فيه على طريقة ابن المعتز يكثر من الأمثلة والشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الصحابة والعرب وأشعار المتقدمين والمحدثين.

رابعا: لقد اتبع العسكري منهج المتكلمين في دراسة الأدب ونقده وإن ادّعى نفوره منهم، تحوّل تيار النقد الأدبي الذي كان يعتمد على تصنيف النصوص الأدبية على تقاليد العرب المأثورة، وما تدرج عليه الشعراء القدامى في تشبيهاتهم واستعاراتهم ومعانيهم إلى منهج عقلي يعنى بالحدود والتقاسيم... حوّل القول فيما هو كائن إلى القول فيما يجب أن يكون، كما عنى بالتنظيم العلمي، وحصر الأحكام بعد أن كانت مبثوثة في (البيان والتبيين) وغيره، فحوّل مجرى النقد الذي يعتمد على الذوق والموازنة إلى علم منظّم بيّن السمات واضح المعالم... وعلم البلاغة الذي وضع أساسه ابن المعتز وأتمّ بناءه أبو هلال العسكري.

خامسا: لقد استقل العسكري بمنهج خاص به تناول فيه البحث عن الصناعة البلاغية بكل ما تحتوي هذه الكلمة من معان، بشَهّر برجالها، ويقتفيهم في شعره ونثره... وخير الأساليب الأدبية في نظره ما حلا البديع وكساه التصنيع، وبهذا نكون قد حددنا منهج العسكري ولو نسبيا في الدرس البلاغي.

سادسا: لقد كانت رغبة العسكري في تصنيف المعارف التي انتهت إلى عصره في الموضوع وتنظيمها سهل الاستفادة منها، فلم يكن هناك مؤلفٌ يعتمد عليه في الموضوع، فأكبر الكتب مصنف في الموضوع وأشهرها (البيان والتبيين) للجاحظ... غير أن الاستفادة من هذا الكتاب عسيرة، فلهذه الأسباب يقول العسكري: "رأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا

على جمع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه، وتستعمل في محلوله ومعقوده..." فهو يشكل إذا حلقة في تاريخ البلاغة العربية، بالحاجة الماسة إلى كتاب جامع لما يحتاج إليه الناظم والناثر على حد سواء، وبالتالي إقامة صرح بلاغة تتسع للمنظوم والمنثور.

سابعا: لقد أحالنا العسكري بحدسه على مبدأ لساني أكدته الدراسات اللسانية الحديثة يتجلى في ميل اللغة العربية إلى الخفة والسير والاستغناء عن كل ما لا يضيف شيئا إلى الخطاب، وهذا بخلاف الخطاب الأدبي الذي يقوم كلغة ثانية مشاكسة لقانون اللغة الأولى بشتى الصور... فقد ظهر تميزه في حديثه عن –الأخذ وتداول المعاني– بفصله بين مستوى اللغة العادية وبين مستوى اللغة الأدبية؛ فاللغة عند العسكري مشتركة والأدب خاص.

ثامنا: ليس العسكري مجرد جماعة لآراء من سبقه كما يتبادر إلى الذهن، بالنظر إلى وجود مواد من عمل الجاحظ في حديثه عن جودة النظم وتمييز جيد الكلام من رديئه، وتأثره بالآمدي والقاضي في حديثه عن السرقات الشعرية وحسن الأخذ وقبحه، وشديد التأثر بأستاذه وخاله أبي أحمد العسكري عندما ينقل عنه تراه يقول: "أخبرني" ونحو ذلك مما يدل على السماع والمشافهة وقد كانوا يقدمون السماع على النقل من الكتب... لقد أقام عمله على انتقاء المواد المناسبة من التراث البلاغي الذي انتهى إليه. ذلك أن هناك حاجيات شعر بها العسكري وجمع المواد التي تفي بالغرض فيها.

تاسعا: ومما يوآخذ على العسكري أنه يهمل أسماء الكتّاب والشعراء في كثير من الشواهد، كأن يقول: "كتب بعضهم إلى أخ له: أما بعد فإن المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوء فوت ما لم يكن ليدركه...وان الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء..." فهو يكثر من كلمة –قال الشاعر– و–قال الآخر– من غير تعيين وهذا عيب لم ينفرد به، وإنما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين في اللغة العربية بحيث لو نسبت كل كلمة إلى قائلها لعرفت كثيرا من تطورات المعاني والألفاظ والأساليب.

عاشرا: ومما لاشك فيه أن أبا هلال العسكري نهج في كتاب (الصناعتين) نهجا علميا خالصا، عالج فيه جوهر الشعر ودرس المعاني والألفاظ وفصّل ما تسمو به وما تتضع دون أن يتعرض لعوامل الإجادة وبواعث المعاني ومنابع الألفاظ. أما جوهر الأدب فقد رأى العسكري تخليط العلماء –كما يقول– في الحكم وفي الاختيار، فأراد أن يضع الأسس لهذه الأحكام وأن يستدرك ما فات الجاحظ من التنظيم العلمي. ولا شك أن هذه الرغبة في تنظيم

هذا العلم –علم البلاغة– كان واضع قواعد ومنظم أحكام تتصل بجوهر الفن الأدبي أو هكذا كان يريد، وتلك حقيقة واضحة ترفعه إلى مقام الأدباء المفكرين الذين ينظرون إلى الأدب فنا له خصائصه ومميزاته، من غير مراعاة لقائله فترك المنهج التاريخي للعالمين بالأخبار والأنساب من الرواة والعلماء.

لنسأل بعد ذلك: هل نجح العسكري في وضع أسس ومقاييس تقاس بها الآثار الأدبية، ويوزن النتاج الأدبي ؟ وهل استطاع أن يصدر أحكاما قاطعة في أحكام السابقين تبين صحتها أو خطأها ؟ وهل علل هذه الأحكام تعليلا ترضاه القواعد التي وضعها ؟ والواقع أن مشروع العسكري كقراءة عامة يحاول تشغيل المعرفة من جديد في الموضوع كثيرا للمهتمين بهذا الحقل المعرفي الواسع.

فهرست المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

القرآن الكريم

1- أبو هلال العسكري – الصناعتين – تحقيق مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط 2 – 1989 .

2- أبو هلال العسكري – الصناعتين – تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة البابي الحلبي وشركاؤه – ط 2 – د.ت .

3- أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – تحقيق وإشراف نخبة من الأدباء – الدار التونسية للنشر والتوزيع – تونس – طبعة دار الثقافة – 1983 .

4- أبو النصر الغزالي – إحصاء العلوم- دار الثقافة- بيروت- لبنان- دط- 1964.

5- ابن الأثير – المثل السائر – تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة – دار النهضة – مصر – 1979.

6- ابن منظور – لسان العرب – معجم لغوي علمي – إعداد وتصنيف يوسف الخياط – دار لسان العرب – الجزء 5 – من حرف الزاي إلى حرف الفاء – مادة فصح.

7- ابن وهب – نقد الشعر – دار الثقافة – يروت – لبنان- دط- 1964.

8- ابن المعتز – البديع – نشر كراتشوفسكي – طبعة مكتبة المثنى – بغداد – د.ط – 1967.

9- ابن القطفي – أنباه الرواة في انباه النحاة – مطبعة دار الكتب – القاهرة – د.ط – 1950.

10- ابن سلام الجمحي – طبقات فحول الشعراء – دار الثقافة – بيروت – لبنان – د.ط – 1965.

11- ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة – دار الثقافة – بيروت- لبنان- دط- دت.

12- ابن قتيبة – تأويل مشكل القرآن – تحقيق السيد أحمد صقر الجلبي – د.ط – 1954.

13- ابن قتيبة – الشعر والشعراء – دار الثقافة- بيروت- لبنان- دط- 1964.

14- ابن خلكان – وفيات الأعيان – تحقيق محي الدين عبد الحميد – مكتبة النهضة المصرية – ط.1 – 1948.
15- ابن خلدون – المقدمة – المطبعة التجارية- القاهرة- ط.1 – 1948.
16- ابن طباطبا – عيار الشعر – تحقيق الحاجري وسلام – المكتبة التجارية – د.ط – 1956.
17- المبرد – الكامل في اللغة والأدب – روجع بمعرفة نخبة من العلماء – دار النشر التجارية – مطبعة الاستقامة – د.ط – 1951.
18- المبرد – رسالة في البلاغة – تحقيق د.رمضان عبد التواب – مكتبة الثقافة الدينية – ط.2 – 1985.
19- المثنى – مجاز القرآن – علّق عليه وعارضه بأصوله د.محمد فؤاد سركين – مكتبة الخانجي – د.ط – 1980.
20- الجاحظ – البيان والتبيين – تحقيق وشرح عبد السلام هارون – دار الجيل – بيروت – لبنان – د.ط – 1990.
21- الجاحظ – الحيوان – تحقيق وشرح عبد السلام هارون – دار الجيل – بيروت – لبنان – د.ط – 1996.
22- الجوهري – الصحاح – مكتبة السعادة – مصر – دط- دت.
23- الإيجي عضد الدين عبد الرحمن – المواقف – مطبعة السعادة – القاهرة – د.ط – د.ت.
24- العلوي – الطراز – راجعته وضبطته لجنة من العلماء بإشراف الناشر – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – د.ط – د.ت.
25- الآمدي – الموازنة بين الطائيين – روجع بمعرفة نخبة من العلماء- دار النشر التجارية- ط1- 1948.
26- الفراء – معاني القرآن – دار الثقافة- بيروت- لبنان- دط- دت.
27- السيوطي – بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة – المكتبة العصرية – بيروت – لبنان – د.ط –د.ت.
28- الرماني – النكت في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله سلام – دار المعارف – ط 3 – 1988.

29- القاضي الجرجاني – الوساطة بين المتنبي وخصومه – دار السعادة – القاهرة – مصر دط- دت.
30- عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – صحح طبعه وعلّق على حواشيه الشيخ محمد رضا رشيد – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – د.ط – د.ت.
31- ياقوت الحموي – معجم الأدباء – تحقيق د.أحمد فريد الرفاعي – مطبوعات دار المأمون – راجعته وزارة المعارف – مصر – د.ط – د.ت.
32- قدامة بن جعفر – نقد الشعر – تحقيق د.كمال مصطفى – مكتبة الخانجي – د.ط – د.ت.
33- ثعلب – قواعد الشعر – تحقيق محمد عبد المنعم الخفاجي – طبعة الباب الحلبي – القاهرة – ط.1 – 1948.

ثانيا : المراجع :

1- د.أحمد محمود صبحي – علم الكلام – دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين (المعتزلة) – دار المعارف الإسلامية – مصر – ط.2 – 1933.
2- د.بدوي طبانة – أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية – دار الثقافة – بيروت – لبنان – ط.3 – 1981.
3- د.محمد العمري – البلاغة العربية أصولها وامتدادها – إفريقيا الشرق – د.ط – 1999.
4- د.محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – دار الثقافة – بيروت – لبنان – ط.1- 1980.
5- د.مازن المبارك – الموجز في تاريخ البلاغة – دار الفكر – دمشق – سوريا – ط.2 – 1979.
6- د.مصطفى الصاوي الجويني – الفكر البلاغي الحديث – دار المعرفة الجامعية – د.ط – 1999.
7- د.مصطفى عبد الرزاق – تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية – دار المعارف الإسلامية- مصر – ط.1 – 1944.

8- د.عائشة حسين فريد – منهج البحث البلاغي – دار قباء للطباعة والتوزيع – ط.1 – 1977.
9- د.عبد المنعم الخطابي – البلاغة العربية بين التجديد والتقليد – دار الجيل – بيروت – لبنان – ط.1 – 1992.
10- د.عبد العزيز عتيق – في البلاغة العربية – دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت – لبنان – ط.1 – 1990.
11- د.عبد العزيز عرفة – تاريخ نشأة علوم البلاغة العربية وأطوارها – دار الطباعة المحمدية – ط.1 – 1978.
12- د. رابح ديب – المحاولات الأولى لبناء بلاغة عامة حتى نهاية القرن الرابع هجري – دار النشر والتوزيع القاهرة – ط.3 – 1999.
13- طاش كبرى زادة – مفتاح السعادة ومصباح السيادة – دار المعارف – بيروت – لبنان – ط.2 – ج.2 – 1955.
14- د.شوقي ضيف – البلاغة تطور وتاريخ – دار المعارف المصرية – ط.6 – 1980.

فهرست الموضوعات

فهرست الموضوعات

الإهداء

المقدمة

المدخل: – معنى الكلام

– مفهوم الكلام

– عوامل نشأة الكلام

– سبب التسمية

– تعريف علم الكلام

الفصل الأول: الدرس البلاغي قبل أبي هلال العسكري

– منشأ البلاغة العربية

– مفاهيم أولية للدرس البلاغي

أ–البلاغة لغة

ب–البلاغة اصطلاحا

ج–تعريفات عامة للبلاغة

– الظواهر البلاغية

أ–البلاغة في العصر الجاهلي

ب–البلاغة في العصر الإسلامي

ج–البلاغة في العصر الأموي

د–البلاغة في العصر العباسي

– أهم البلاغيين ومؤلفاتهم البلاغية قبل القرن الرابع عشر الهجري

الفصل الثاني : علم الكلام في بلاغة الشعر والنثر عند أبي هلال العسكري

– كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله

– علاقة علم نظرية علم الكلام بفني الشعر والنثر في نظر أبي هلال العسكري

– العلاقة بين الألفاظ والمعاني عند أبي هلال العسكري وسابقيه من العلماء العرب

– أبو هلال العسكري : – تعرضه لقضية اللفظ والمعنى

– تعصبه للفظ على حساب المعنى

الفصل الثالث: علم الكلام عند أبي هلال العسكري في كتاب (الصناعتين)

– أثر المتقدمين في ثورة أبي هلال العسكري البلاغية

- منهج أبي هلال العسكري في (الصناعتين)
- مقاييس العسكري النقدية في (الصناعتين)
  أ- الألفاظ
  ب- المعاني

- مقاييس العسكري في معاني فنون الشعر
  أ- فن المديح
  ب- فن الهجاء
  ج- فن الوصف
- مقاييس العسكري البلاغية وأثرها في الدرس البلاغي
  أ- وظيفة البلاغة لدى أبي هلال العسكري
  ب- تصور العسكري لمنهج البلاغة في (الصناعتين)
- علم البلاغة وجهود العسكري فيها
  أ- علم البيان
  ب- علم المعاني
  ج- علم البديع

الفصل الرابع : مصادر نظرية علم الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري
- القرآن الكريم
- النقاد وعلماء عصره وسابقيه
- التراث الأدبي شعرا ونثرا

الخاتمة

فهرست المصادر والمراجع

فهرست الموضوعات